بسم الله الرحمن الرحيم

يمانيات

IV

في التاريخ والثقافة والسياسة

يمانيات: في التاريخ والثقافة والسياسة/ حسين عبد الله العمري .- دمشق: دار الفكر، ٢٠١١ .-ج٤
(٢٨٨ص)؛ ٢٥سم.

ISBN:978-9933-10-311-8

١-٩٥٦,٧ ع م ر ي ٢- العنوان ٣- العمري

مكتبة الأسد

أ.د. حسين عبد الله العمري

يمانيات

IV

في التاريخ والثقافة والسياسة

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

2011=1432
دار الفكر - دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

يمانيات

IV

في التاريخ والثقافة والسياسة

أ. د. حسين عبد الله العمري

الرقم الاصطلاحي: ٤- ١٠٥٧,٠١١
الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-311-8
التصنيف الموضوعي: ٩٥٦ (تاريخ العرب والإسلام)
٢٨٨ ص، ١٧ × ٢٥ سم
الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م
© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

المحتوى

إهداء ٧

بين يدي (يمانيات IV) ٩

في السياسة والتاريخ

بين يدي ٢٢ مايو (وحْدةٌ ليست على دَخَن) ١٣

الحركات التحريرية في اليمن (في القرن العشرين) ١٥

ملحق ختامي لأحداث سنة ١٩٦٧م الاتحاد (الفيدرالي) وبريطانيا العظمى . ٥٠

الحروب الصليبية (٤٩٣ - ٦٩١هـ/ ١٠٩٨ - ١٢٩١م) ٥٦

يوم الرَزم ٨١

تأملات في شؤون الإدارة والإصلاحات العُثمانية في ولاية اليمن ٨٤

وثيقة (موقف الإمام يحيى بن محمد حميد الدين من وعد بلفور وهجرة اليهود إلى فلسطين) ٩٣

العلاقة اليمنية الأمريكية في وثيقة رسمية وأطروحة دكتوراه ٩٩

الهَمْداني لسان اليمن دراسات في ذكراه الألفية ١٠٤

نظرات في البدر الطالع للإمام الشوكاني ١٠٦

علي بن عبد الله الوزير أمير لواء تعز ١١٥

في الثقافة والتراث

ثقافة التسامح الديني والسياسي في اليمن ١٢١

المشهد الثقافي في التقرير العربي (الثاني) للتنمية الثقافية ١٢٩

المخطوط اليمني في دار الكتب والوثائق المصرية ١٣٤

التراث المخطوط في الجزيرة العربية ١٤٤
حديث ذاكرة الفكر والتاريخ (الحلقة الأولى) ١٥١
حديث ذاكرة الفكر والتاريخ (الحلقة الثانية) ١٦٤
حديث ذاكرة الفكر والتاريخ (الحلقة الثالثة) ١٧٧
حديث ذاكرة الفكر والتاريخ (الحلقة الرابعة) ١٨٨
حديث ذاكرة الفكر والتاريخ (الحلقة الخامسة) ٢٠٤

راحلون

في ذكرى مرور مئة عام على رحيل المستشرق الكبير إدوارد جلزر ٢١٧
في رحيل : بطل عزيز اللواء مجاهد يحيى أبو شوارب ٢٢٠
في رحيل الأستاذ العالم والاقتصادي الكبير محمد بن عبد الوهاب جُباري . ٢٢٢
فريد هاليداي الذي غاب ٢٢٤
في أربعينية الراحل الكبير الأستاذ أحمد جابر عفيف ٢٢٨

كلمات في مناسبات

كلمة الكاتب في جامعة صنعاء عند تكريمه ومنحه جائزتها للأستاذ الجامعي ٢٣٥
في الاحتفالية بذكرى تأسيس " جمعية المنشدين" ٢٣٨
نشيد الإنشاد! ٢٤٠
في ذكرى الحافظ الكبير الصفيّ أحمد بن عبد الرحمن محبوب ٢٤٢
الندوة الخاصة بدور المجتمعات المحلية في الحفاظ على المدن التاريخية ... ٢٤٤
ندوة الحفاظ على الحياة الثقافية والتراثية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية
لمدينة صنعاء القديمة التاريخية وبقية المدن اليمنية ٢٥٠
احتفال تكريم المناضل الكبير عبد السلام محمد صبرة ٢٥٥
حماية حقوق الملكية الفكرية رسالة إلى النائب العام!! ٢٥٨
بين يدي هذه الأوراق ٢٦١
مقدمة الطبعة الثانية ٢٦٥
الفهارس العامة ٢٦٧

إهداء

هذه اليمانيات مهداة إلى زوجتي الصبور العظيمة، التي تحملت الأولاد والغربة..

وما زالت تحتمل انعزالي في مكتبتي، وقيامي بواجباتي الرسمية والأكاديمية، بل وكثرة أسفاري.

إلى سيدتي الزوجة الفاضلة العزيزة ابنة عمي أمة الحَسيب حسن العَمري

مع كل حبي.

بيروت / عمّان

حزيران/ يونيو ٢٠١١م

بين يدي (يمانيات IV)

أَحْمَدُ الله العَلي القدير الذي يسَّر بانتظام خروج هذا الجزء الرابع من يمانيات، حاوياً بعض الكتابات والأوراق المنشورة[1]، وأبحاثاً ودراسات أخرى كانت مشاركة في مؤتمرات وندوات دولية وأكاديمية، هنا في اليمن وفي المملكة العربية السعودية ومصر العَربيَّة وغيرها، في مواضيع ومناسبات مختلفة.

وكان حرصي - كما في اليمانيات السابقة - على تحقيق وثائق يمنية تاريخية ونشرها، لأول مرة، وسيجد المتابع المختص والقارئ الكريم منها وثيقتين هامتين؛ الأولى: عن موقف الإمام يحيى حميد الدين من وعد بلفور المشؤوم وزير خارجية بريطانيا عام ١٩١٧م، ومنعه بحزم الهجرة اليهودية من اليمن إلى فلسطين. والثانية: كتابه في عام ١٩٤٧م إلى الجنرال مارشال وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية؛ لتأسيس علاقة دبلوماسية بين البلدين، ودعم اليمن في الانضمام إلى الأمم المتحدة.

كما ضمت هذه اليمانيات أوراقاً وكلمات (خطابات)، في مناسبات وأنشطة ثقافية قامت بها "مؤسسة اليمن للثقافة والتراث"، وشاركت فيها، إلى غير ذلك من تأبين وإشادة بدور عدد ممن رحل من أعلام يمنيين، ومستشرقين لهم علاقة باليمن في الفترة نفسها.

---

(١) في الحواشي مظان ما نشر منها وتاريخه.

فعسى أن يكون في هذا بعض الفائدة للمختصين أو المهتمين، وخدمة للعلم والثقافة، والله من وراء القصد.

صنعاء في ٢١ شعبان ١٤٣٢ هـ
٢٢ يوليو / تموز ٢٠١١ م
أ. د. حسين عبد الله العمري

في السياسة والتاريخ

بين يدي ٢٢ مايو[١]

(وحْدةٌ ليست على دَخَن)[٢]

في تاريخ الشعوب والأمم «يوم» أو «أيام»، لا تنمحي من ذاكرتها عبر العصور...و ما من شك بأن هذا اليوم «الثاني والعشرين من أيار/مايو» هو أحد الأيام الخالدة في التاريخ اليمني، بل العربي، إن لم يكن أعظمها وأخطرها وأبعدها أثراً في العصر الحديث.

ألم تعد اللُّحمة الواحدة وسُداتها إلى شطري الوطن، في وقت كانت تتفتت فيه وتتشطر دول كُبرى كالاتحاد السوفييتي ودول البلقان؟ صحيح أن جامع تلك الاتحادات كان القبضة الحديدية للعقيدة الماركسية التي ثبت فشلها، وبسقوطها عادت الشعوب إلى هويتها القومية أو الوطنية الجامعة لأبنائها، ولكن المثال اليمني هو نموذج لم يتكرر بظروفه وأوضاعه في عالم اليوم، باستثناء الحالة الألمانية المشابهة مع الفارق؛ ذلك أن تقسيم ألمانيا كان فرضاً - مؤقتاً- من المنتصرين بتقسيم الشعب الألماني الواحد بنتائج الحرب العالمية الثانية وأوزارها.

* * *

(١) الكلمة هذه افتتاحية لعدد أيار/ مايو من صحيفة (صنعاء اليمن)، الصادرة عن مؤسسة اليمن للثقافة والتُّراث التي أرأس مجلس الأمناء فيها.

(٢) (الدَّخَن : الحقد). وفي الحديث الشريف «هُدنة على دَخَن» أي: استقرار على أمور مكروهة، وهذا ما حاول أعداء الوحدة ومنهم قادة الانفصال ترويجه.

تُرى ماذا لو لم ترع المشيئة الإلهية تلك الجهود الحثيثة، والإرادة القوية المخلصة لمحقق الحلم التاريخي، ومن كان معه من قيادَتَي ما كان يسمى بشطرَي الوطن؟

سؤال لعلّهُ لم يَدُرْ بخلد أحدٍ منا عشية الحدث العظيم في الثاني والعشرين من أيار/ مايو عام ١٩٩٠م، لكن السؤال كان هاجساً مخيفاً عشية حرب الانفصال بعد أربعة أعوام من الوحدة والشرعية الدستورية، وكان الجواب عن ذلك السؤال (المُتَخيل) على لسان محقق الحلم وصانع الحدث العظيم الرئيس علي عبد الله صالح:

«الوحدة أو الموت !!».

وها نحن في الذكرى السابعة عشرة لذلك اليوم، نحتفل في مدينة «إبّ» الخضراء التي تستقبل بعبق تاريخها مسيرة قائد وزعيم حقق الحلم، وكان - ما زال - يرعى حرية الوطن ووحدته وتقدمه، في ظل ثوابت الثورة وخطوات الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي، والتغلب على الفساد مع الصبر والتحمُّل لذوي الأهواء والغايات الفاسدة، الذين لا يخلو من أمثالهم مجتمع في مختلف البلدان والأزمان.

وكل عام والوطن وكل أبنائه بألف خير.

الحركات التحريرية في اليمن

(في القرن العشرين)[١]

تمهيد

لم يكن الاتفاق الودي البريطاني/ الفرنسي، في مطلع القرن العشرين (١٩٠٤م)، على إطلاق يَدَي الدولتين الاستعماريتين في المشرق والمغرب العربي، إلَّا تحصيل حاصل لاحتلالهما بعض ولايات رجل أوربا المريض قبل ذلك من القرن التاسع عشر (الجزائر ١٨٣٠م، عدن ١٨٣٩م، مصر ١٨٨٢م، المغرب ١٩٠١م)...، بل إن بريطانيا بعد أن احتلت عدن، مدَّت سيطرتها على مَشيخَات الجنوب اليمني، بما فيها حضرموت، بعد ذلك بالتدريج. وكان اتفاق سايكس/ بيكو (١٩١٦م) استمراراً للتعاون الاستعماري التآمري في الوطن العربي، والإجهاز على الدولة العثمانية. وكانت شمال اليمن (المملكة المتوكلية اليمنية) قد نالت استقلالها عن الباب العالي بالانسحاب العثماني بنهاية الحرب العالمية الأولى (٣٠ تشرين الأول- أكتوبر ١٩١٨م)، بناءً على المادة (١٦) من اتفاقية (مودروس) التي نصت على : «استسلام كل الحاميات التركية في

(١) البحث منشور في المجلد السابع من «الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية»، الصادر عن المنظمة العربية للعلوم والفنون والآداب (الإسسكو)، تونس، ٢٠٠٩م.

الحجاز واليمن وسورية وبلاد الرافدين». فكانت بذلك أول ولاية عربية مستقلة في المشرق العربي، في حين استمرّ جنوب اليمن تحت الاحتلال البريطاني حتى عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م كما سيأتي ذكره.

الحركة الوطنية ضد الوجود العثماني

كان فَتحُ قناة السويس عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٦٩م قد يسّر للدولة العثمانية دعم قواتها المحصورة في ساحل البحر الأحمر وسهل تهامة، بعد أن كان قد تعذّر توسُّعها منذ مجيئها إلى اليمن عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م، ومن ثم تقدمها بعد ذلك صوب العاصمة صنعاء، ومدّ نفوذها في المناطق الشمالية في عام ١٢٨٩ هـ/ ١٨٧٢م، في ظل مقاومة شديدة من اليمنيين قتل فيها الكثير من الأتراك حتى نهاية العقد الأول من القرن العشرين، ولذلك سُمِّيَت اليمن حينها «مقبرة الأناضول».

وهكذا بلغت الثورة ذروتها في ربيع عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م حين أطبقت قوات الإمام يحيى بن محمد حَميد الدِّين (١٣٢٢ - ١٣٦٧هـ/ ١٩٠٤ - ١٩٤٨م)، الذي خَلَفَ والده المنصور في العام السابق، الحصارَ على العاصمة، وتمكن من اقتحامها بعد هزيمة حاميتها المتحصنة فيها في (٢١ نيسان/ أبريل) . بيد أنه قرَّر الانسحاب منها «محافظةً على سكانها من معرّة القبائل التي كان يقودها»، وربما أيضاً تهيباً لما يكون قد وصل إلى علمه من خبر تجييش الآستانة لقوة كبيرة بقيادة صاحب التجربتين السابقتين في اليمن، والمشهور بسياسته القاسية المشير أحمد فيضي باشا، قائداً ووالياً (١٣٢٣- ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٥ - ١٩٠٨م)، في محاولة قوية لإعادة الهيبة والسيطرة العثمانية على العاصمة صنعاء ومدن الشمال، التي كانت قد سقطت في يد القوات اليمنية، وتمكن فيضي باشا من دخول صنعاء في مطلع أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، بعد أن تكبّدت قواته خسائر كبيرة في طريقها إلى العاصمة.

و عن وقع ذلك الحصار والقتال خارج صنعاء، ترك لنا معاصرون وصفاً دقيقاً لمدى معاناة أهل صنعاء والمناطق المحيطة بها (الأحواز) من الجوع والشدائد، حتى عُرفَت تلك السنة (بسنة النَّفر)؛ حيث بلغ قيمة (النَّفر)[1] من الحَبّ ريالاً فضياً (ماريا تريزا)، وهو سعر لم تعرفه البلاد من قبل ولا من بعد.

كانت السنوات الثلاث لولاية فيضي باشا اقتتالاً شديداً، فيه كرٌّ وفرٌّ وخسائرُ كبيرةٌ في الرجال والمعدّات، ويقال إنه خَسرَ نصف جيشه في حملته هذه، غير أنه في آخر الأمر تمكن من استعادة المدن المهمة التي كان الإمام يحيى قد استولى عليها، ومنها «شِبام» و«كوكبان» و «عَمْران» و «حَجّة» وغيرها.

و قد كان لهذه الأحداث ردود أفعال متباينة في عاصمة الدولة، واتضح لها أن استمرار استخدام القوة غير مجدٍ لمعالجة المعضلة اليمنية، فقررت الحكومة في مطلع العام الأول بعد فكّ حصار صنعاء الميل إلى التفاوض مع الإمام يحيى، وأرسلت وفداً لعقد صُلح معه، وقد أوضح موقفه في خطاب مؤرخ ١٣ صفر ١٣٢٤هـ/ نيسان- أبريل ١٩٠٦م، حوى (١٦) من المقترحات أو الشروط التي يطالب بها، وهي في مجملها متعلقة بالعفو العام، وإنهاء الفساد المالي والإداري، ومنحه سلطات محلية كجباية الزكاة والواجبات، وأن تعود الأحكام الشرعية إليه، ومن ذلك تعيين حكام الشرع والقضاة وعزلهم، في مختلف أنحاء البلاد، مع الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية ودفاعها عن اليمن من التعدّيات

(١) النّفر (ج) أنفار؛ معيار واحد من أربعة وستين نفراً هي جملة معيار كيل القَدَح من الحبوب (= ٤٠ كجم)، ومقدار النَّفر أقل من حفنتين باليد، في حين كانت قيمة ربع القدح (١٦ نفراً) بنحو ريال قبل الحصار، وكان وجود الريال عند أغلب الناس في هذه الظروف في حكم النادر!

الأجنبية، وحقها في إدارة الشؤون الخارجية للولاية. ولمّا لم يتم التوصل إلى نتيجة في مقترحات الإمام، فقد تجددت الثورة والاضطرابات، مما اضطر الباب العالي إلى إرسال وفد من كبار علماء مكة في منتصف عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م بهدف «النصيحة وترك القتال والحث على الصلح»، ولم يحقق الوفد أي نتيجة، فحقيقة الأمر أن الإمام يحيى كان يلحُّ على وَضْع خاصٍّ به في اليمن، مقابل استقرار يخفف على الحكومة المزيد من الخسائر مع الأمل في الاستقرار.

ولم يكن السلطان أو الباب العالي على استعداد لتقبل مقترحات تقلِّص من السلطات المركزية، لكن قراره المدروس بعزل واليه الفظّ المشير أحمد فيضي عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، وتعيين الفريق حسن تحسين باشا الفقير[1] (١٣٢٣- ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨- ١٩١١م)، العربي السوري، الإصلاحي المتَّزن، جعل اليمنيين يتنفسون الصعداء، وتعمّ المناطق الشمالية حالة من الهدوء النِّسبي وشبه الاستقرار القائم على الاعتراف بالأمر الواقع بين الطرفين، وحقق بعض مطالب الإمام يحيى. وقد شجَّع هذا الوضع السلطان عبد الحميد، قبل عزله، على طلب وفد من علماء اليمن وكبار رجاله، للوصول إلى الآستانة للتفاهم على ما يصلح أوضاع الولاية، وقد أخفق الوفد في مهمته للتناقض بين مواقف أعضائه، فطلب الصدر الأعظم كامل باشا ثانية من الوالي حسن تحسين باشا إرسال وفد آخر، يكون أعضاؤه من خاصة الإمام يحيى وذوي الرأي، وقد توجّه بالفعل الوفدُ الكبير إلى الآستانة برئاسة القاضي سعد بن محمد الشرفي وآخرين، من بينهم أحد كبار العلماء المنفيين في جزيرة رودس، ووصلها

(١) بالإضافة إلى دور حسن تحسين الإيجابي في هذه الفترة، فقد كان ممن فضّل البقاء في اليمن بعد الانسحاب العثماني، وعَمِلَ قائداً ومدرباً للجيش اليمني حتى عاد إلى دمشق عام ١٩٤٦م، وتوفِّي بها عام ١٩٤٨م.

في ١٧ محرم ١٣٢٧هـ/ ١٠ شباط - فبراير ١٩٠٧م. وقد وجد الوفد اهتماماً وحُسن استقبال من السلطان عبد الحميد وكبار رجال الدولة، وكان لإعادة العمل بالدستور في العام السابق (١٩٠٨م)، وظهور تيار ليبرالي جديد مثَّله وصول بعض رجال «جمعية الاتحاد والترقِّي» إلى السلطة، بعد زحف محمود شوكت باشا على العاصمة من سالونيك في ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٠٩م وخَلْع عبد الحميد، أهمية لما كانت تدعو إليه الجمعية ظاهرياً من المساواة لجميع مواطني الدولة بموجب الدستور، قبل تغلُّب التيار القومي (الطوراني) التركي برئاسة أنور باشا فيما بعد، ولقد أمضى الوفد نحو ستة أشهر في الآستانة حدث خلالها تعيين وزير الداخلية حسين حلمي باشا، الوالي الإصلاحي السابق لليمن (١٣١٦-١٣١٨هـ/ ١٨٩٨- ١٩٠٠م) والمتعاطف مع قضاياه، صدراً أعظم خلفاً لكامل باشا، وكان قد قدّم لائحة للسلطان وضّح فيها أسباب تردي أوضاع الولاية، ومقترحاته للإصلاح والمعالجة، وقد أمر بتشكيل لجنة لدراسة المقترحات المقدمة من الوفد، والمتضمنة كذلك طلبات الإمام يحيى، وقد أُحيلت إلى مجلس المبعوثان (البرلمان)، وشارك في نقاشها أعضاء اللجنة المشكلة وممثلو اليمن في المجلس، وتم التوصل إلى قواسم مشتركة وافق عليها مجلس الوزراء، غير أن وزير الداخلية السياسي الاتحادي البارز طلعت باشا (ت: ١٩٢١م)، أسرع إلى المجلس وطلب سحب المشروع المقترح، فتراجعت بذلك الجهود السلمية لحل مشكلة اليمن، وأيَّدت الحكومة الجديدة إرسال قوات إضافية لحسم تمرُّد الإمام يحيى بالقوة، خاصة وقد نشبت في العام السابق ثورة ألبانيا، وبدأ الوعي القومي ينتشر في الولايات العربية وغيرها، ما شكَّل تهديداً حقيقياً على مركزية الدولة ومستقبلها.

لقد باتت قضية اليمن مجال أحاديث وأخبار كثيرة في الصحافة

العثمانية والعربية (المنار، المؤيد، الأهرام،...) وغيرها، ومع كل ذلك فقد استمرت الجهود من الطرفين مع أن الاقتتال بينهما عاد في ظل ولاية محمد علي باشا (الاتحادي) (١٣٢٨- ١٣٢٩هـ/ ١٩١٠-١٩١١م)، وسياساته البوليسية والعدوانية الخاطئة مع اليمنيين في شمال صنعاء وجنوبها حتى تعز، والتي أدّت إلى حصار أهم المدن الرئيسية بما فيها صنعاء التي سبق تكرار حصارها غير مرّة، وامتدّ في هذه المرة نحو ثلاثة أشهر؛ من ذي الحجة ١٣٢٨ هـ/ كانون الأول - ديسمبر ١٩١٠م حتى ربيع الأول ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

ظهور الإدريسي على مسرح الأحداث

تزامنت تلك الأحداث مع ظهور نشاط السيد محمد علي الإدريسي على مسرح الأحداث في القسم الشمالي الغربي من الولاية (عَسير والمخلاف السليماني) من عام ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧م، لتحقيق طموحه في إيجاد وضع خاص به في عسير والمخلاف السليماني، وانخرط في حروب ضد الحامية التركية بلغت ذروتها في هزيمته للأتراك في معركة (الحفائر)، في منطقة جيزان عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، وهو العام الذي افترق فيه عن التضامن مع قتال الإمام يحيى ضدّ العثمانيين الأتراك، ووجد ضالَّته في التحالف مع إيطاليا التي أسرعت بدعمه المادّي الحربي (واللوجستي)، خلال حربها في ولاية طرابلس الغرب في عامي (١٩١١ و١٩١٢م)، وقام الأسطول الإيطالي بضرب الموانئ اليمنية في البحر الأحمر التابعة للدولة العثمانية، وقصفتها بمدافعها، بما فيها مدينة (الحُديدة) التي فرّ أهلها إلى داخل تهامة، ومدينة (الشيخ سعيد) في الطرف الجنوبي الغربي لليمن، وتمكنوا من إغراق بعض القطع البحرية العثمانية أمام السواحل الجنوبية، وتمكّن حليفهم الإدريسي - بحراً - من السيطرة على ميناءي (ميدي) و (جيزان).

لقد كان من الواضح أن إيطاليا بدعمها للإدريسي في البحر الأحمر تريد شغل العثمانيين فيه، وإجهاض محاولتهم في استرداد طرابلس، ومن ثمّ بَسْط نفوذها على الساحل اليمني المواجه لمستعمراتها في إرتيريا. ولمّا تحققت لها السيطرة على طرابلس (١٩١٢م) تخلّت عن الإدريسي في قتاله مع العثمانيين، وكان حليفه البديل بريطانيا وقواتها المحتلة لعدن، وقد تطابقت أهدافهما ضد العثمانيين والإمام يحيى الذي افترق عن الإدريسي بِعَقْدِهِ الصُّلحَ مع العثمانيين في دعّان (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، وهو الذي لم يوافق العثمانيون على عَقْدِ صُلْح مماثلٍ معه.

* * *

إرهاصات الحرب والسلام

مع أن الاضطرابات عمّت بعض الولايات العثمانية في البلقان، ومع خطر الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب، فقد أثارت التجهيزات العسكرية الكبيرة في الآستانة والمكونة من (ثلاثين طابوراً تضم خمسين ألف جندي)، الكثير من التساؤلات في الأوساط السياسية عن هذه الأهمية التي أولتها الحكومة العثمانية لمثل هذه الحملة إلى اليمن، وخاصة أنها بقيادة الشخصية المهمة والبارزة المشير أحمد عزّت باشا رئيس أركان حرب الجيش، وبمعيته عددٌ من كبار الضباط من بينهم عصمت إينونو (١٨٨٤- ١٩٧٣م)، الذي أصبح الرجل الثاني بعد أتاتورك (ثم رئيساً للجمهورية التركية)، والذي تساءل (فيما بعد في مذكراته) لماذا يذهب قائد الجيش في هذا الوقت إلى اليمن، وليس إلى مكان آخر تعتمل فيه الاضطرابات .. وربما يكون أخطر؟ وكان رأي عزّت باشا أنّه «آثر العمل على إنقاذ البلاد من داءٍ مزمنٍ في منطقة بعيدة ..» [يعني بها اليمن]. وكان من الواضح أن هذا القائد الذي سبق له المجيء مع المشير أحمد

فيضي لفك حصار صنعاء عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، قد عقد العزم على حلّ مشكلة اليمن حرباً أو سلماً، مع أن وجهات النظر في الآستانة متباينة.

وهكذا غادر عزّت باشا وقوته الكبيرة إستانبول في بداية ربيع عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م. فعرّج أولاً على جِدّةَ واجتمع مع الشريف حسين شريف مكة، واتفق معه على إرسال قوة من لديه بَرَّاً إلى عسير، يعززها هو نفسه، بقوة يرسلها بحراً من الحديدة حال وصوله إليها للقضاء على حركة الإدريسي هناك، كما أوحى إليه بمراسلة الإمام يحيى، مراسلة فيها من الترغيب والترهيب بالقوة - التي لا قِبَلَ لَهُ بها - والتي يقودها المشير القائد الذي يميل إلى الصُّلح، وبأنه يتفهّم ويتعاطف مع وضع الإمام بين أنصاره وأتباعه، كما طلب إليه إرسال رسائل بنفس المعنى إلى أحمد بن فضل سلطان لحج.

و ما إن وصل المشير أحمد عزّت باشا إلى ميناء مدينة الحديدة، حتى أرسل ببعض القوات إلى لواء عسير بحسب اتفاقه مع شريف مكة، وأخرى لنفس مناطق تهامة لتأديب قبائل الزرانيق، ومثلها إلى تعز لفكّ الحصار عن المدينة، وبقدر ما كان ذلك مطلوباً، فلعلّه أراد بذلك أيضاً رسائل تُظْهِرُ قوّته موجّهة إلى صنعاء والتي تَوَجّه إليها مُواجهاً مقاومة، متفرقةً، إلا أنها عنيفةٌ، وتمكّن جيشه من دخولها خلال ثمانية أيام[1]، وذلك في ٦ ربيع الأول ١٣٢٩هـ/ ٧ آذار - مارس ١٩١١م.

وكان ذلك دخولاً فخيماً استعراضياً للقوّة الجبّارة، ومع ذلك فقد كان أوّلُ عمل قام به المشير عزّت، أن توجّه إلى ميدان شرارة (ميدان التحرير

(١) استغرق وصول قوات المشير أحمد فيضي إلى صنعاء المحصورة، وكان معه عزّت باشا آن ذلك عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، قرابة شهر تكبّد فيه خسائر بشرية ومادية أكبر بكثير من هذه الحملة مع الفارق بينهما.

الآن)، وفي حشد من أهل المدينة وأركان حربه وبعض قوّاته ألقى خطاباً لوَّحَ فيه بالحرب وآمال السلام.

اتفاقية دعّان (١٣٢٩ هـ/ ١٩١١م)

بسبب معرفة عزت باشا السابقة بأوضاع اليمن وبُعد نظرِه في أهمية حلّ المعضلة اليمنية، بالإضافة إلى دعم الباب العالي وبعض الساسة لشخصه، ولما يُمكن أن يتخذه من تدابير سياسية تخدم السلام والاستقرار ومصالح الطرفين، وأهمية حقن الدماء وإنهاء دورات الثورات وحصار المدن، فقد حَسَمَ أمره - ومن مركز القوة - في التفاوض مع الإمام يحيى (كما يذكر عصمت إينونو في مذكراته عن " حملة اليمن")، وكانت البداية استدعاء أعيان القبائل الخاضعة لسيطرة الإمام ومشايخها، واستقبالهم في أُبهة عسكرية، ومنحهم هِباتٍ ماليةً مجزيةً، ممَّا أقلق الإمام يحيى، وكان الهدف من ذلك هو الضغط عليه ليوافق على مبدأ التفاوض الذي رحّب به شريطة أن يتلقّى «خطاباً واضحاً من عزَّت باشا يؤكد فيه رغبته الجدّية في بحث هذا الأمر»، وقد تمّ ذلك ؛ وتلقّى عزّت باشا رداً إيجابياً من الإمام، فسارع باستدعاء شيخ علماء صنعاء العلاّمة القاضي حسين بن علي العَمري ناظر الأوقاف (وهو الذي كان قد صاغ كتاب عزّت باشا إلى الإمام)، وزميله العلامة قاسم بن حسين العزّي أبو طالب، وضمّ إليهما عزيز علي المصري أحد أهم مرافقي عزت باشا، والمعروف بدوره البارز في قضايا الولايات العربية العثمانية، وكلَّفَهُم بالتوجّهِ إلى الإمام يحيى وفتح باب التفاوض معه، وقد أفلحَ الوفدُ في التوصُّل إلى مشروع عقْد صُلحٍ بين الطرفين، أساسه حل كل مشاكل الولاية المثارة من قَبْلُ وإعلانُ العفو العام، وكبادرة لحسن النيَّة أطلق الإمام جميع الأسرى من العثمانيين، وكان عددهم أربع مئة أسير، وقام أحد أطباء الحملة العثماني أحمد بن هاشم بزيارة الإمام يحيى، ومعالجته من آلام شديدة في أمعائه كادت تُوْدِي به.

وكان من شروط الإمام أن طلب تفويضاً كتابياً من السلطان محمد رشاد للمشير عزّت باشا فيما سيتم التوصل إليه، وقد أرسل بالفعل الصدر الأعظم سعيد باشا بالتفويض المطلوب، وتمت المفاوضات بين الطرفين في مختلف بنود الصلح (العشرين)، التي منحت الإمام يحيى بعض الصلاحيات في القضاء والأوقاف والسلطة الروحية، (مع التبعية للآستانة).

وكان عزّت باشا يدير المفاوضات والتوجيهات مع الوفد المكلّف من قبله باللغة العربية، ولعل هذا هو السبب - فيما ذكر عصمت إينونو - أنه لم يكن يُحط مساعديه علماً إلا بالخطوط العريضة لهذه المفاوضات. وفي الأخير تمكّن الطرفان من الوصول إلى الصيغة النهائية بعد جهود كبيرة، وتم الاتفاق على لقاء الإمام يحيى بعزّت باشا في قرية دعّان بالقرب من عمران، على بُعد نحو ٤٠ كلم شمال العاصمة صنعاء، وتم التوقيع على وثيقة الصُّلح التي حملت اسم القرية، وذلك يوم الخميس ٢٦ شوال ١٣٢٩هـ/ ٢٦ نوفمبر- تشرين الثاني ١٩١١م بحضور أركان الولاية، وقادة الجيش العثماني، وكبار العلماء والمشايخ الموالين للإمام يحيى، وقد تأخّرت المصادقة على الاتفاق من قبل مجلس المبعوثان (البرلمان) للإعداد للانتخابات النيابية، فتمّت المصادقة من مجلس الوزراء، ونَشَرَه عزّت باشا في صحيفة الولاية الرسمية (صنعاء)، وأرسل بنسخة إلى الإمام يحيى إلى شهارة لطمأنته، وللإسراع بالعمل بما تم الاتفاق عليه وما خصّ به من صلاحيات؛ وأهمها تعيين القضاة في مختلف نواحي الولاية، وتشكيل المحكمة الاستثنائية العليا التي عُيّن القاضي حسين بن علي العمري رئيساً لها، وفي الملحق السرّي للاتفاق بأنه يمنح مبلغاً مقطوعاً من المال سنوياً، ولم يحدد قدره، وهو ما أكّده عزّت باشا فيما بعد في مذكراته. وقد وقّع السلطان محمد رشاد على فرمان المصادقة في وقت

لاحق، بعد أن كان المشير عزّت باشا قد توجّه إلى ساحة القتال ضد إيطاليا في طرابلس الغرب ومعه عزيز المصري. وأرسل الفرمان مع الوالي بالنيابة محمود نديم، الذي استمر في خدمة اليمن مع الإمام يحيى، حتى بعد الانسحاب العثماني عَقِب الحرب العالمية الأولى، وكان عروبياً مخلصاً رجع إلى وطنه سورية عام ١٩٢٦ وبها تُوفي.

* * *

الأوضاع العامة نهايةَ الحرب العالمية

كانت السنوات التي تلت اتفاق دعّان حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٨م، سنوات صعبة على القوات العثمانية الموجودة في اليمن والحجاز، وإن كان الاتفاق قد منح العثمانيين نوعاً من الأمان والسلام الذي حرص عليه الطرفان، إلا أن تحكُّم بريطانيا في خطوط الملاحة في السويس والبحر الأحمر، ووجودها وهي العدوّ في الحرب، في جنوب اليمن، ودعمها في عسير للإدريسي الذي واصل هجماته، كل ذلك لم يثن العثمانيين عن التقدّم بنجاح في صيف عام ١٩١٦م بقيادة علي سعيد باشا جنوباً، والاستيلاء على لحج والضالع وغيرهما، وفي الوقت نفسه كان الشريف حسين ينفِّذ مع البريطانيين اتفاق سايكس/ بيكو للثورة ضد العثمانيين في الحجاز، وما أوهمت به بريطانيا الشريف بمختلف الوسائل، والتي كان آخرها رسالة السير هنري مكماهون المؤرّخة ١٠ آذار/ مارس ١٩١٦م، بإقامة مملكته العربية على كل ممتلكات الباب العالي العربية في الجزيرة وبلاد الشام والعراق، باستثناء يمن الإمام يحيى ومستعمرة عدن الخاصة بها (كما هو معروف)[١].

(١) يزخر الأرشيفان البريطاني والعثماني بمئات الوثائق المنشور بعضها عن هذه الفترة، وما قبلها وما بعدها.

ولقد زاد من ضيق الحصار على العثمانيين في اليمن والحجاز ذلك التحالف الذي تم بين عبد العزيز آل سعود وبريطانيا في عام **١٩١٥م**، وكان لذلك شأنٌ كبيرٌ بعد ذلك باستيلاء ابن سعود على الحجاز بعد أقلّ من عشر سنوات، بل وإعلان الحماية على عسير وتأسيسه للمملكة العربية السعودية عام **١٩٣٢م**، ومن ثمّ دخوله في نزاع مع الإمام يحيى، كان من نتائجه الحرب بين البلدين عام **١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م** كما سيأتي.

* * *

ومع نهاية الحرب فقد كان الوضع في اليمن شماله وجنوبه على النحو التالي:

كان الإمام يحيى قد توجه من معقله في **الشمال** متقدماً إلى قرب العاصمة صنعاء، حيث نزل بمتنزه (الروضة) على بعد عشرة كيلومترات منها، حيث تلقى دعوة من الوالي (بالنيابة) محمود نديم بك لدخول العاصمة وتسليمه مقاليد الحكم «باعتباره وريثاً شرعياً للحكم العثماني في اليمن».

وهكذا دخل الإمام يحيى صنعاء في شهر تشرين الأول/ نوفمبر **١٩١٨م**، في أبهة واستقبال شعبي ورسمي كبير، وتسلم ما في قصر غُمدان (قصر السلاح الآن) من أسلحة، وغيرها من الآلات والأجهزة الحربية من القائد العثماني أحمد توفيق، مقابل ما كان له من ديون ومتأخرات عليهم (في سنوات الحرب).

* * *

أما في الجنوب: فقد تذبذبت السياسة البريطانية في تعاملها مع الإمام يحيى عقب الانسحاب العثماني النهائي، وكان تعاملها مع الإدريسي سني الحرب قد جعلها، بعد أن قصفت ميناء الحديدة واحتلتها عام **١٣٢٧ هـ/**

١٩١٩م، تقوم بتسليمها للإدريسي. فكان رد الإمام احتلال «الضالع والعواذل ... وسائر المحميات المحيطة بعدن» ووطد سلطاته وعلاقته بمشايخها. وكان في الوقت نفسه يبحث عن حلفاء لدعمه، فوقّع مع إيطاليا أول معاهدة صداقة وتجارة في ٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٥م، اعترفت بها إيطاليا باستقلال اليمن التام والمطلق، وضمنت حماية وضعها في إريتريا والحبشة وتقليص النفوذ الإنجليزي في منطقة البحر الأحمر، وقد تدفقت المساعدات الاقتصادية والأسلحة والمعدات الحربية من إيطاليا، بما فيها شراء الإمام عدداً من الطائرات الحربية وإرسال أول بعثة طيران إلى روما، وفي الوقت نفسه توجه إلى روما الأمير الحسين ابن الإمام يحيى على رأس وفد، من أعضائه وزيرُ الخارجية - التركي الأصل - القاضي محمد راغب في عام ١٩٢٨م. وهكذا، وبعد مرور تسع سنوات وبريطانيا تغض الطرف عن وجود قوات الإمام يحيى في معظم المحميات، وفي رد فعل لهذه المعاهدة حوَّلت دفاع عدن من الجيش البريطاني إلى قوة «سلاح الطيران الملكي»، وأعدَّت العُدَّة لهجوم جوي عنيف بالقنابل شنته على مراكز الإمام في محميات الجنوب؛ كالضالع ويافع، بل ومدن في وسط اليمن كذمار ويريم وتَعز، وقد فُجع اليمنيون بذلك وأطلقوا على عام ١٩٢٨م «سنة الطائرات»، وفيها - أو بسببها - انسحبت قوات الإمام [المهزومة] نحو الشمال، وبعد أن حقق الإنجليز أهدافهم العسكرية، أحدث توقيع الإمام يحيى على معاهدة صنعاء مع الاتحاد السوفييتي (١٧ جمادى الأولى ١٣٤٧هـ/ أول تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٢٨م) الذي تم به الاعتراف باستقلاله، أحدث اضطراباً في مستعمرة عدن، وكان حاكمها السير برنارد رايلي، في هذه الفترة ما بين (١٩٢٥ - ١٩٤٠م)، الذي كان قد عين (مقيماً سياسياً) ثم (الحاكم العام لعدن ومحمياتها)، ويعتبر المهندس الرئيس لسياساتها، فبادر بإرسال مساعده الكولونيل هارولد جاكوب عام ١٩٣٠م الذي سبق له زيارة

الإمام، ولأنه كان «يرى شخصياً أن معظم السلطنات والمشيخات في الأراضي المحمية كان يجب أن تعود إلى سلطة الأئمة المباشرة بعد انسحاب الأتراك...»، بل لقد كان ذلك هو رأي مؤتمر القاهرة برئاسة ونستون تشرشل وزير المستعمرات (آذار/ مارس ١٩٢١م)، وقد أبدى الإمام استعداده ليعترف بالوضع الراهن «كوضع راهن» دون اللجوء إلى المنازعات، وتم بالفعل - وبعد نحو خمسة عشر عاماً من الحروب - توقيع معاهدة صنعاء بتاريخ (٢ شوال ١٣٥٢ هـ/ ١١ شباط - فبراير ١٩٣٤م)، وكان من أهم بنودها «اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال جلالة ملك اليمن الإمام يحيى ومملكته استقلالاً تاماً مطلقاً ...»، على أن يؤجل البت في مسألة الحدود اليمنية (٤٠ عاماً)، على بقاء الوضع القائم بالنسبة إلى الحدود كما هي عليه عند تاريخ توقيع المعاهدة. وقد قيل وقتها إن بريطانيا أحرزت فائدتين «تأجيل البت في مسألة الحدود لأربعين عاماً»، «وعلاقة الود وحُسن الجوار»، بيد أن وجهة نظر الإمام هي أن البريطانيين لا بد راحلون قبل الأربعين عاماً؛ [أي قبل ١٩٧٤م وهو بالفعل ما تم]، وكان همّ الإمام يحيى وهاجسه الأكبر هو الخطر الدَّاهم من الشمال، بعد أن تطور خلافه مع الملك عبد العزيز آل سعود الحامي للإدريسي في عسير، منذ معاهدة مكة بينهما (١٤ ربيع الآخر ١٣٤٥هـ/ ١٢ تشرين الأول - أكتوبر ١٩٢٦م)، والتي تعتبر بداية اندماج عسير ومن ثم ضمها في مشروع ابن سعود في توحيد شمال الجزيرة، بما سيعلن عنه في عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م باسم المملكة العربية السعودية، التي تطور نزاعها مع مملكة الإمام يحيى إلى حرب الستة أسابيع في ربيع عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، وأول تدخل عربي للمساعي الحميدة بإيقاف الحرب، بعد أن كانت القوات السعودية بقيادة الأمير الشاب فيصل بن عبد العزيز (الملك فيما بعد) قد وصلت إلى الحديدة. وانتهى الأمر بالانسحاب بعد توقيع (معاهدة الطائف) الشهيرة (٦ صفر ١٣٥٢هـ/ ١٩ أيار- مايو ١٩٣٤م)،

وكان صاحب (المنار) المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا أول من نشرها في آخر عدد لمجلته؛ إذ وافاه الأجل في حينه.

ظاهرة العزلة وظهور المعارضة الوطنية (١٣٥٣- ١٣٦٧هـ/١٩٣٤ - ١٩٤٨م)

كان الإمام يحيى قد بلغ الخامسة والستين من عمره، فهو من مواليد سنة (١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩م)، ولم يغادر صنعاء منذ دخلها حتى مقتله بعد أربعة عشر عاماً، بل إنه لم يعرف البحر، وكانت علاقاته مع الخارج متميزة بالحذر الشديد، ومع كفاءة بعض رجال إدارته ومن استعان بهم ممن فضل البقاء من العثمانيين، وجلهم من عرب بلاد الشام - إلّا أن طبيعة الرجل الاستبدادية والفردية جعلته محور كل صغيرة وكبيرة، بل هي في الحقيقة من تقاليد نظم الإمامة والخلافة التي كان وارثها. وليس من شك بأن نظرته، بل معاناته، مع الاستعمار في الجنوب، واحتلال كل المشرق والمغرب من قبل الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين، عمّق لديه المخاوف في علاقاته الخارجية، ومن ثمّ اتسعت ظاهرة عزلة اليمن عن العالم الخارجي إلّا في أضيق الحدود، مع تلك الدول التي وقّع معها اتفاقيات ذات طابع تجاري واعتراف رسمي بمملكته. ولعل وجود نظام حكم هاشمي في العراق جعل من علاقة البلدين مميزة، خاصة بعد زيارة رئيس وزراء العراق طه باشا الهاشمي لليمن وتوقيعه في صنعاء، مع ندّه اليمني القاضي عبد الله بن حسين العمري، المعاهدة اليمنية - العراقية (٢٢ ذي الحجة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م). وعلى محدودية تلك المعاهدة، إلّا أن علاقة البلدين توسعّت بعد ذلك وانضم الإمام يحيى إلى معاهدة «الأخوّة العربية والتحالف»، التي سبق عقدها بين العراق والسعودية (١٧ صفر ١٣٥٦هـ/ أيار - مايو ١٩٣٧م).

لقد أدّى ذلك التقارب إلى إرسال اليمن للتعليم بعثتين عسكريتين وتعليمية (تربوية) في عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٧م إلى بغداد، كما أُرسلت بعثة عسكرية عراقية لتدريب الجيش اليمني، وشاءت الأقدار أن بعض ضباط تلك البعثة اليمنية العسكرية كانوا من قادة ثورة الدستور ضد الإمام يحيى، بقيادة الضابط العراقي الرئيس [النقيب] جمال جميل، كما كان البعض الآخر من المدنيين من المساهمين في الحقل التربوي، وكانوا مع خريجين من الأزهر الشريف، وبعض العلماء المتنوّرين، نواة الحركة الوطنية التي ظهرت إرهاصاتها بنهاية العقد الثالث من القرن العشرين. ومع ذلك فقد كانت اليمن من الدول العربية السبع (المستقلة) التي أسست جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥م، والتحقت عام ١٩٤٧م بمنظمة الأمم المتحدة، وفي آخر ذلك العام جرت في واشنطن المحادثات لإقامة علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة[١].

* * *

خلّف الأتراك للإمام يحيى تركة ثقيلة من الفقر والتخلف، في مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والتعليمية والعسكرية، وكانت هزيمته أمام القوات السعودية الأحسن تدريباً والأقوى تسليحاً، والمدعومة بريطانياً، مثار نقد وجدل شديدين في أوساط المجتمع اليمني، خاصة فئة العلماء والمتنوّرين. وساعدت الأوضاع العامة السيئة، واستمرار سياسة الإمام في العزلة ورفض كل جديد، على تبلور تيار كان نواة المعارضة لنظام الإمام يحيى وحكمه. فتشكلت جمعيات سرية في بعض المدن، كصنعاء وذمار وإب وغيرها، وأصدر بعض أوائل الروّاد، ومنهم القاضي محمد الخالدي ومحمد قاسم أبو طالب (الخطيب)، منشورات ضد الإمام يحيى وحكمه، فتم سجنهما. وكان قد عاد من القاهرة الشاعر الكبير القاضي محمد

(١) انظر تفاصيل ذلك في (ص: ١٠٠ - ١٠٣) فيما يأتي.

محمود الزبيري في الوقت نفسه (١٩٤١م) وحمل أفكاراً إصلاحية متواضعة، فسجن أيضاً، ولم يلبث عددٌ من الضباط والأساتذة العائدين من العراق، ومن أشهرهم عبد الله السلال «أول رئيس للجمهورية» ومحيي الدين العنسي وأحمد الحورش وأحمد محبوب وأحمد المروني وأحمد المطاع، أن ألقي بهم في السجن نحو سنة. وكان هؤلاء وغيرهم أمثال القاضي (الرئيس) عبد الرحمن الإرياني والقاضي عبد السلام صبرة وحسن العَمري، وأحمد محمد الشامي والأستاذ أحمد محمد نعمان وآخرين، من أعضاء ثورة الدستور وقادتها بعد ستة أعوام.

وفي تعز كان وليّ العهد أحمد ابن الإمام يحيى (الذي أصبح حاكمها خلفاً لعلي الوزير) يُظهر تعاطفه مع هذا التيار، ولهذا لجأ إليه بعد خروجهم من السجن القاضي الشاعر الزبيري والأستاذ نعمان وأحمد الشامي، وآخرون من الأدباء والشعراء ممن يحملون نفس الأفكار. ولم يَطُل بهم المقام ؛ فقد تبين لهم منه عكس ما كان يُبدي، فقرر الشّاعر الزبيري والأستاذ النعمان الهروب إلى مستعمرة عدن في ٤ حزيران/ يونيو عام ١٩٤٤م، لحق بهما الشاعران أحمد بن محمد الشامي وزيد الموشكي وآخرون. وقد طلبوا حق اللجوء السياسي من السلطات البريطانية فمنحتهم ذلك حكومة عدن بعد تردد. ولم يلبث هؤلاء الأحرار، ومن كان بعدن من قبلهم، أن أعلنوا أول حزب معارض في اليمن هو (حزب الأحرار)، برئاسة النعمان وزعامة القاضي الزبيري، وكان لهما شأن ونضال طويلان.

وقد تبنّت صحيفة (فتاة الجزيرة) لصاحبها المتنوّر محمد علي لقمان المحامي أفكارَ الحزب ونشرَ رسائله ونشاطه الإعلامي، فأقبل كثير من اليمنيين في عدن على الحزب، وقد أزعج هذا النشاطُ الإمامَ يحيى واعتبر ذلك يسيء إلى العلاقات بين البلدين، فوضعت السلطات البريطانية قيوداً على الحزب، حين جعل قادته يستغلون القانون المدني في عدن، الذي

يسمح بتشكيل جمعيات ذات نشاط اجتماعي، واختاروا تعديل اسم الحزب إلى «الجمعية اليمانية الكبرى» التي عَنوا بها كل أهل اليمن، وانتخب القاضي الزبيري رئيساً لها في (٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٦م). وقبل نهاية العام صَدرت صحيفة الجمعية «صوت اليمن»[١] برئاسة الزبيري، وتمكّن الأحرار من تسريبها وتوزيعها في معظم مناطق اليمن، وكان وقْعُ ذلك شديداً على الإمام يحيى، فقرر إرسال ولي عهده الأمير سيف الإسلام أحمد ليحاور (أصدقاءه) القدماء من الأحرار في عدن، ويُعلن جُملةً من الإصلاحات الداخلية والعلاقات الخارجية العربية في شهر نيسان/ أبريل، لكنه أخفق في كل ذلك. وزاد الطين بلّة بعد ذلك لجوء أخيه سيف الإسلام إبراهيم ابن الإمام يحيى، وانضمامه إلى الأحرار في عدن في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٦م، وإطلاقهم عليه لقب : «سيف الحق!».

* * *

كان الأستاذان الزبيري ونعمان وغيرهما ممن درس في الأزهر أو دار العلوم بالقاهرة، على معرفة بالشيخ حسن البنا ونشاط «جمعية الإخوان المسلمين»، لكنهما في الغالب لم تكن لهما صلة تنظيمية. وما جاء عام ١٩٤٧م إلّا وأخبار نشاط الأحرار متواترة في الأوساط المصرية، ومنها جماعة الإخوان، ولهذا فقد اهتبلت فكرة رغبة الإمام يحيى بالتشاور في إدخال مشروعات اقتصادية، مع السيد محمد سالم أحد أصحاب الشركات المصرية، فأرسل إلى الإمام عالم الآثار الدكتور أحمد فخري وأحد أركان «جمعية الإخوان المسلمين» المناضل الجزائري الخطير

(١) تبرع المغتربون اليمنيون في الحبشة بشراء مطابع حديثة «الصوت اليمن» وشُحنت إلى عدن، وهذا دليل على اتساع نشاط حركة الأحرار في المهجر، وقد صدر العدد الأول منها بمدينة عدن في ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦م.

الفضيل الورتلاني، الخطيب والمتكلم المفوّه، الذي قيل إنه الواعظ الديني للشركة! ومن الواضح أن لا علاقة للرجلين بعلم الاقتصاد وتأسيس الشركات، مع أن الثاني كان واسع الاطلاع، وقدم تقريراً عن مهمته الصُّورية إلى الإمام يحيى الذي قابله كما قابله ولي العهد في تعز، كغيرهما ممن التقوا بالرجل الذي كانت رسالته وغايته الدفع بعملية التغيير الانقلابي السريع، حتى ولو بقتل الإمام الطاعن في السّن.

كانت تلك الزيارة الأولى التي تركت عند الأحرار في عدن وصنعاء انطباعاً عن الورتلاني لا مثيل له. وعاد إلى اليمن ثانية أواخر شهر تموز/ يوليو ١٩٤٧م، دون علم السيد محمد سالم، ومعه اثنان من رموز المعارضة هما أحمد الحورش ومحيي الدين العنسي، بالإضافة إلى اثنين أحدهما سكرتير الشيخ البنا وصهره عبد الحكيم عابدين والآخر أمين إسماعيل. وكانا موفدين من الشيخ حسن البنا لاستكمال مهمة الورتلاني، وقد حمل معه مسوّدة «الميثاق الوطني المقدس» - دستور الحركة الانقلابية، التي يُعدّ لها بعد موافقة البنا واطلاعه عليه شخصياً.

لقد تمكن الورتلاني ومعه مدرّب الجيش العراقي (الرئيس: النقيب) جمال جميل، ومن اعتنق فكرة الاغتيال السياسي تحت تأثيرهما؛ من بلورة اتخاذ القرار بفتوى وافق عليها بعض العلماء من الأحرار، والمتسابقين من الهاشميين لاستلام السلطة، وعارضها آخرون خوفاً من نتائج الإقدام على اغتيال الإمام، الذي كان في نظر القبائل في حكم المقدّس وبأنه تجاوز الخامسة والثمانين من عمره، وأكثر من هذا بأن الرجل الخطير هو ولي عهده سيف الإسلام أحمد «وليس والده».

وقد حدثت مفاجأة غير متوقعة؛ إذ قام الأحرار في عدن عن طريق الخطأ أو نتيجة خدعة، وقبل أسبوع من مؤامرة الاغتيال، بنشر «الميثاق المقدس» وتفاصيل قوائم أسماء وزراء حكومة الانقلاب ومجلس

الشورى، واختيار مستشار الإمام يحيى وأحد مقرّبيه السيد عبد الله بن أحمد الوزير إماماً خلفاً للإمام يحيى! وتعيين الفضيل الورتلاني مستشاراً عاماً للدولة، ورئيس وزرائه القاضي عبد الله العمري وزيراً للدولة ومشرفاً على أمراء الألوية. ولعل كثرة أسماء المقربين والمسؤولين الكبار في إدارة الإمام يحيى، جعلته يصدِّق، أو يتظاهر بقبوله أيمان السيد عبد الله الوزير المغلظة واستنكاره للأمر جملة وتفصيلاً، وبأن ما نُشر لم يكن إلا خدعة من الأحرار في عدن أو دسيسة إنجليزية! وكيفما كان الأمر، فلم يكن أمام المتآمرين مدنيين وعسكريين سوى حزم أمرهم وتنفيذ عملية الاغتيال قبل وصول ولي العهد أحمد من تعز وفي أول فرصة، وقد تم لهم الأمر في يوم ٧ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ/ ١٧ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٨م، حين خرج الإمام المسن إلى قرية حزيز جنوب صنعاء لتفقد مزرعة له هناك، وكان بصحبته رئيس وزرائه القاضي عبد الله العمري. وفي كمين نصبه المنفذون برئاسة الشيخ القردعي أحد عمّال الإمام السابقين في شبوة، جرى رش السيارة بوابل من رصاص رشاش وعدة بنادق، وقُضي على كل من بها في الحال.

وبعيد الحادث تسلم السيد عبد الله الوزير قصر غُمدان (قصر السلاح)، واجتمع حوله جماعة الأحرار وبايعوه إماماً. كما قام الرئيس جمال جميل مع وحدة من الجيش للسيطرة على القصور الإمامية والقبض على أولاد الإمام يحيى، وقد قتل منهم الحسين والمحسن في مواجهة مع جمال جميل وسجن الباقون. أمّا ولي العهد الخطير سيف الإسلام أحمد فلم يصل من تعز إلى صنعاء، بل توجه إلى حجَّة شمال غرب العاصمة صنعاء، ومن هناك جيَّش القبائل، وتمكن من إسقاط الانقلاب والقبض على قادته، فأعدم عدداً كبيراً منهم في حجة وسجن الباقين. في حين توجّه الزبيري والفضيل الورتلاني على طائرة الجامعة العربية إلى الرياض

ممثلين للانقلاب؛ لمقابلة الدكتور عبد الوهاب عزَّام أمين عام جامعة الدول العربية، والملك عبد العزيز الذي كان موقفه حازماً ضد الانقلاب وقتل الإمام يحيى.

وهكذا استتب الأمر بعد أقل من شهر للإمام الجديد أحمد بن يحيى حميد الدين ١٣٦٧-١٣٨٢هـ/ ١٩٤٨- ١٩٦٢م، الذي اتخذ من تعز مقراً لحكمه واعترفت به الجامعة العربية والدول العربية والأجنبية، كما نفى الشيخ حسن البنا في صحيفة الإخوان أي علاقة لهُ أو لجماعته بما جرى في اليمن[١].

* * *

حكم الإمام أحمد وقضية الجنوب اليمني المحتل

كانت ثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢م في مصر تحولاً مهماً في تاريخ العرب المعاصر، وركبت موجة التحرير الوطني ومحاربة الاستعمار، والبريطاني على وجه الخصوص. وقد ساد الهدوء العلاقات اليمنية الإنجليزية في الفترة الأولى لتثبيت الإمام أحمد حكمه في تعز، وخاصة بعد أن وقع في لندن القاضي محمد العمري وزير الدولة ووكيل وزير الخارجية، مع السِّير إرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا اتفاقية «مشروع لنظام مؤقت مع اليمن» (موديس فيفيندي)، في ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٥١م، تم الاتفاق بموجبه أن يتم تبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين، وأن تقدم بريطانيا لليمن مساعدات «لتنمية الشؤون الاقتصادية

(١) لقد شاءت الأقدار أن يتم اغتيال الشيخ البنا في القاهرة مساء ١٢ شباط/ فبراير ١٩٤٩م، انتقاماً لاغتيال جماعة الإخوان لمحمود فهمي باشا النقّاش رئيس وزراء مصر يوم الثلاثاء ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨م الذي كان قد أصدر قراراً بحل الجماعة قبيل ذلك؛ إثر قيامها بحوادث وسلسلة اغتيالات في مصر.

والثقافية والتعليمية والصحية، ومع المحافظة على بنود اتفاقية ١٩٢٨ م يسعى الطرفان لتطويق الحوادث المتكررة بتشكيل لجنة مشتركة، ويمنع نشر أي دعاية ضد أي منهما ...».

وفي حقيقة الأمر فإن الأوضاع من العام التالي زادت سوءاً، وباستثناء التمثيل الدبلوماسي، فسرعان ما طوى النسيان ذلك الاتفاق.

ولقد كانت رياح التغيير التي جلبتها ثورة تموز/يوليو في مصر قد وصلت مسرعة إلى اليمن بشطريه، وبحماس شعبي لا نظير له، ومن ناحية أخرى فالإمام أحمد استمر في دعم تحركات القبائل الجنوبية ضد البريطانيين بالمال والسلاح، وأحياناً بإرسال قوات جيشه النظامي. وقد دفعت خطوات بريطانيا الأولى للدفع نحو اتحاد فيدرالي لحكام محميات غرب عدن، بعد أن وقعوا في الأربعينيات وقبل عام ١٩٥٢م ما عُرف بالاتفاقات الاستشارية (Advisory Treaties)، دفعت بالإمام إلى اتخاذ خطوات إيجابية سياسية وهجومية، ومن ذلك سياسياً تأكيد موقف اليمن لمصر - قبيل الثورة- وفي أثناء الاحتلال البريطاني، فقد أعلن ممثل اليمن في القاهرة السيد علي المؤيد في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥١م «أن اليمن تبارك كفاح مصر، وتدين الأعمال التي تقوم بها إنجلترا في الأراضي المصرية». وفي العام التالي أيدت اليمن موقف مصر من إلغاء المعاهدة الإنجليزية المصرية لسنة ١٩٣٦م، وكان هذا الموقف متسقاً مع موقف اليمن من الاحتلال البريطاني لجنوب اليمن، ولم يكن - في الواقع - «موقفاً عابراً أو تكتيكياً».

وفي كانون الثاني/ يناير، وبعد خمسة أشهر من ثورة تموز/يوليو ١٩٥٣م، أرسل الإمام أخاه سيف الإسلام الحسن رئيس الوزراء، ومعه القاضي محمد بن عبد الله العمري إلى القاهرة مهنئاً، ولتقوية العلاقات مع

الثورة المصرية ونظامها الجديد، وقد استقبله بحفاوة الرئيس محمد نجيب. ولعل من الدوافع الخفية لتلك الزيارة إبطال أي نشاط متوقع للمعارضة الوطنية، بعد أن كان قد وصل في الوقت نفسه من الباكستان إلى القاهرة زعيمها القاضي محمد محمود الزبيري، واستقبل بترحاب ممن قد عرفوه من المهتمين بشؤون اليمن، وذلك ما حدث بالفعل فيما بعد.

و ضمن التوجه الثوري والعروبي أرسلت مصر الثورة الصَّاغ [الرائد] صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة، وزير الإرشاد القومي ووزير الدولة لشؤون السودان إلى اليمن في حزيران/ يونيو ١٩٥٤م، وقد استقبل استقبالاً رسمياً وشعبياً كبيراً، وقد أزعجت زيارته السلطات البريطانية وحكومة عدن؛ فقد «كانت عامل دفع كبير للتحركات اليمنية» في المحميات، وقد تحدث عن مساعدات مصرية فنية وعسكرية لليمن.

وعند عوده حمَّله الإمام أحمد رسالة[1] للرئيس نجيب مؤرخة ٢ ذي القعدة / ٨ تموز/ يوليو ١٩٥٤م، مليئة بالعواطف الأخوية والعروبية، وبأن رغبته قوية في تلبية الدعوة إلى زيارة مصر، بيد أنه قرَّر «إرسال ولدنا سيف الإسلام محمد البدر ليشترك في حفلات العيد الوطني، في الذكرى الثانية لدولتكم الفتية...».

بالفعل توجه ولي العهد محمد البدر إلى القاهرة، على رأس وفد يمني كبير للمشاركة في الذكرى الثانية لثورة ٢٣ تموز/ يوليو، واستقبله الزعيم جمال عبد الناصر الذي خلف محمد نجيب، وقوبل بحفاوة رسمية وإعلامية. واستمراراً لهذا التواصل وفي مواجهة مصر الثورة للاستعمار والأحلاف العسكرية، قام السيد أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة،

(١) نشرها مؤخراً لأول مرة الكاتب في الجزء الثالث من (يمانيات)، دار الفكر - دمشق، ٢٠٠٨م: (٣٢٨-٣٣١).

سكرتير المؤتمر الإسلامي، بزيارة الإمام أحمد في تعز في ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٥٥م ليطمئن على موقف اليمن، " فوجد الإمام ثابتاً على موقفه الرافض للحلف [حلف بغداد]...".

و في طريق عودة السادات إلى مصر هبطت طائرته في مطار الحديدة ليلتقي بولي العهد محمد البدر، وبحث معه في لقاء طويل مختلف جوانب المواقف والعلاقات المشتركة. وكان لافتاً أن شقيق الإمام سيف الإسلام عبد الله وزير الخارجية، لم يكن في استقبال السادات في تعز كما كان مقرراً، غير أن حرارة استقبال الإمام له، وكذلك البدر في الحديدة، لم يترك أي انطباع إلا أن عبد الله كان ميالاً إلى سياسة الأمريكان، وأكد هذا قيامه بالانقلاب العسكري الفاشل بعد بضعة أسابيع من هذه الزيارة (نيسان/ أبريل ١٩٥٥م). وقد وصل لتهنئة الإمام السيد حسين الشافعي عضو مجلس قيادة الثورة، كما وصل الأمير فهد بن عبد العزيز وزير المعارف (الملك السعودي) فيما بعد، ومن ثم فقد توطد مركز ولي العهد البدر، وقام في الشهر التالي (أيار/ مايو ١٩٥٥م) بزيارته الرسمية الثانية للقاهرة. ولعل الاهتمام الخاص به من الرئيس عبد الناصر وقادة الثورة، جعله يتلقى ترحاباً وحفاوة من الزبيري والنعمان وبقية الأحرار الموجودين هناك، وهو ما لم يكن يتوقعه.

وخلال كل ذلك لم تتوقف المناوشات على الحدود الجنوبية، ومدّ القبائل بالمال والسلاح لزعزعة الأوضاع في المحميات، مع أن حاكم عدن، السير هيكنبوثام قد زار الإمام في تعز لتهدئة الأوضاع. وهكذا بلغت العلاقة مع مصر وسياساتها ضد الاستعمار ذروتها في اللقاء الثلاثي بين الإمام أحمد والرئيس عبد الناصر والملك سعود في جدة، وتوقيعهم على " الاتفاق الأمني العسكري" في ٢١ نيسان/ أبريل ١٩٥٦م، الذي اعتبرت فيه الدول الثلاث المتعاقدة : " كل اعتداء مسلح يقع على أي

دولة منها أو على قواتها اعتداء عليها ...."، وكان ذلك واضحاً أنه ضد بريطانيا على وجه الخصوص.

لقد كانت شكاوى اليمن متكررة إلى جامعة الدول العربية وإلى الأمم المتحدة، ضد العدوان الإنجليزي المستمر في الحدود وما وراءها جنوباً، وكذلك محاولة بريطانيا التنقيب عن النفط في جزيرة كمران المحتلة منذ الانسحاب العثماني.

وبالمقابل كانت ردود الفعل من القبائل في المحميات في انتفاضات وتفجيرات زادت حتى نهاية ١٩٥٥م " بألف حادثة مسلحة"، ومنها في مراكز الحرس الحكومي والقبلي خاصة في العوالق العليا والسفلى ودثينة، واحتفل " آل ربيز" بنسف الحصن الذي أقامه الإنجليز بالقوة.

ورغم انشغال الإمام أحمد داخلياً بذيول انقلاب نيسان/ أبريل ١٩٥٥م، إلا أنه، وبتشجيع من مصر عبد الناصر، قام ولي العهد البدر فيما بين أيار/ مايو وأيلول/ سبتمبر ١٩٥٦م بزيارة موسكو وبراغ وبكين، ومعظم العواصم في الكتلة الشرقية وعقد صفقات شراء أسلحة، وكان هم قضية السويس والعدوان الثلاثي على مصر قد أثار ردود فعل كبيرة شعبية ورسمية في اليمن والعالم العربي، إلا أنها اتسعت في اليمن وزادت في التقارب والتعاون مع مصر، وكذلك مع السعودية بحكم مشاكلها مع الإنجليز في واحة البريمي، ولهذا نجد أن السعودية نفسها زودت الثوار في المحميات بأسلحة ومتفجرات، تمكن الإنجليز في شباط/ فبراير ١٩٥٦م من القبض على سيارتين منها، مشحونتين ببنادق مرسلة إلى العوالق.

* * *

ومع نهاية عام ١٩٥٦م «كانت الأجواء على الحدود مشحونة بتوتر شديد، وبدا أن البريطانيين قد فكروا في القيام بعمل واسع النطاق ضد

القوات اليمنية والقبائل المناهضة [للاحتلال] المرابطة على الحدود، وخاصة منطقة البيضاء، كما واصلوا إرسال قواتهم إلى جزيرة كمران، وظل طيرانهم يقوم بطلعات جوية فوق الأراضي اليمنية، وقد حذرت اليمن من ذلك، إلا أن البريطانيين قاموا فعلاً بهجوم كبير على مناطق قعطبة والبيضاء والصومعة، فطلبت اليمن تدخل الجامعة العربية والدول الشقيقة....». وكانت صحف القاهرة (الأهرام) و (أخبار اليوم)، وبعض صحف العواصم العربية مليئة بهذه الأخبار، وقد أقر مجلس الجامعة في دورته السادسة والعشرين (أول نيسان/ أبريل ١٩٥٧م)، إرسال وفد لزيارة اليمن والاطلاع على ما يجري في الحدود، برئاسة [المرحوم] أحمد الشقيري الأمين العام المساعد للجامعة. وقد قامت اللجنة بزيارة اليمن وندد رئيسها بالأعمال العدوانية للبريطانيين. وفي ٢٥ نيسان/ أبريل نشرت البعثة تقريرها وقالت فيه: «...إنها تبينت من وجود حركة قومية عامة بين مشايخ القبائل والعشائر وسائر المواطنين، بهدف التحرير من السلطان الأجنبي، وهذه الحركة تعبر عن نفسها بوسائل شتى ينجم عنها النزاع بين السكان العرب [اليمنيين] والسلطات البريطانية في عدن، والغارات والاعتداء على اليمن [الشمال]».

ولأسباب استراتيجية كان يهم أمريكا توسطها بين اليمن وبريطانيا، حتى لا تلحق اليمن بمصر في الارتباط بالمعسكر الشرقي، فضغطت على لندن لاستقبال الأمير البدر لإجراء مفاوضات وتقديم تنازلات، ترضي اليمن وتهدئ الأوضاع المضطربة، وقد قبلت اليمن بالفكرة، وكانت أول محطة للبدر في جولته الأوربية الأولى لندن، التي وصلها في ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧م، على رأس وفد كان ضمنه وكيله للشؤون الخارجية القاضي محمد العمري، وهو الموقع عام ١٩٥١م في لندن على اتفاقية لندن (موديس فيفندي). وبعد أسبوع من المفاوضات «فشل الطرفان

في الوصول إلى حل يرضي اليمن التي تمسكت بحقها في المحميات....»، فغادر الوفد متوجهاً إلى براغ وموسكو ووارسو وبكين، وهناك كان يستقبل استقبالاً حافلاً، مما دعا بعض الصحف البريطانية إلى تسمية البدر «بالأمير الأحمر!».

وفي ربيع عام ١٩٥٨م بلغ المد الوحدوي غاياته بوصول الرئيس جمال عبد الناصر إلى دمشق، وفاجأ الغرب وإسرائيل بتوقيعه مع الرئيس السوري شكري القوتلي اتفاق قيام الوحدة الاندماجية بين البلدين، وإعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة، وهو المشروع الذي طالما سعى من أجله المناضلون والقوميون العرب منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد فرحت الأمة العربية في كل أقطارها بهذا الإنجاز التاريخي، الذي كان بابه مفتوحاً لمن يرغب في الانضمام إليه من بقية الأقطار الشقيقة، وكان الإمام أحمد أول المستجيبين لذلك، فأمر ولي عهده البدر، بالتوجه بعد رحلته تلك إلى دمشق، وهناك تم في ٨ آذار/ مارس ١٩٥٨م إعلان قيام (الاتحاد الثلاثي) بين الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها الشمالي (مصر) والجنوبي (سورية) والمملكة المتوكلية اليمنية، وشكل لذلك مجلس تنفيذي ثلاثي من وزراء الأقطار الثلاثة [برئاسة السياسي السوري المخضرم إحسان الجابري] وكان مقره القاهرة.

لقد سدد الإمام أحمد بذلك ضربة قوية لبريطانيا، وخيبة أمل للعلاقة مع أمريكا. ولهذا فقد استمرت بريطانيا بقية العام في مناوشات الحدود، وأسرعت في تنفيذ مشروعها المفروض لإقامة اتحاد فيدرالي، مستخدمة مختلف وسائل الترغيب والترهيب. وهكذا أعلن رسمياً في (شباط/ فبراير ١٩٥٩م) عن تأسيس «الاتحاد الفيدرالي للجنوب العربي» شاركت فيه ست محميات (ولايات)، ثم انضمت خلال الأعوام الأربعة التالية بقية السلطنات (لحج والعقارب والعوالق السفلى ودثينة والواحدي)، ثم

ضمت إليه مستعمرة عدن في كانون الثاني/ يناير١٩٦٣م، وسوف يسقط هذا الاتحاد مع تصاعد حركة الاستقلال السياسي والمسلح بعد ذلك.

انزعجت اليمن ومعها الجمهورية العربية المتحدة بإعلان هذا الكيان الانفصالي المسمّى «بالجنوب العربي»، وتصاعدت الحملات الإذاعية عليه وعلى بريطانيا الاستعمارية من إذاعتي صنعاء و (صوت العرب)، وكذلك في الصحافة، واستقبلت تعز قادة المناضلين والمعارضين [الجنوبيين] لقيام هذا الكيان والمطالبين بالاستقلال. وأرادت الحكومة البريطانية استخدام دهائها، فطلبت عودة المفاوضات مع حكومة عدن، فوافق الإمام وأرسل وفداً في أيار/ مايو ١٩٥٩م برئاسة السياسي المحنك القاضي محمد بن عبد الله الشامي [ت ١٩٨٥م]. وقد نقلت صحيفة (فتاة الجزيرة) العدنية في ١٢ أيار/ مايو تصريحاً لولي العهد محمد البدر بعدم معرفته بإمكان نجاح هذه المفاوضات، مضيفاً «...بأن الشيء الوحيد الذي يعرفه هو أنه إذا فشلت فلن يكون أمام اليمن غير الحرب». وكان الوفد قد رفض أي لقاء مع ممثلي الاتحاد الفيدرالي، معتبراً «اليمن كلاً لا يتجزأ، وبلداً واحداً ...».

وقد أخفقت المحادثات لأن اليمن أصرت على موقفها الأول من مسألة المحميات، ومطالبة بالتعويضات التي لم تستجب بريطانيا لها، فرفعت اليمن شكواها ضدها إلى الأمم المتحدة، وطالبت المجتمع الدولي بالتدخل لوقف العدوان على أراضيها، ومنح الاستقلال لجنوب اليمن المحتل.

* * *

التحرر والاستقلال

تصاعدت الأحداث سريعاً في الشمال والجنوب؛ ففي الوقت الذي كانت فيه الاضطرابات والمظاهرات في عدن تدفع بإرسال مزيد من القوات البريطانية لمواجهة الحركة المتصاعدة والمعارضة في المستعمرة، كانت مصر في الواقع هي الداعمة بشكل أساسي، ومع مطلع الستينيات أصبح لعدن أهمية خاصة في الاستراتيجية الدولية، فقد أشار الكتاب الأبيض الصادر عن وزارة الدفاع البريطانية إلى نيّة بريطانيا في أن تبقي قواتها العسكرية في عدن بصورة دائمة. وهذا ما لم يحدث باشتعال الثورة النهائية في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٣م، بل بإعلان بريطانيا العظمى بعد ذلك انسحابها إلى شرق السويس قبل عام ١٩٦٧م، وليس من شك بأن مجيء حكومة العمال إلى الحكم، وتعاونها الخفي مع الاتجاه اليساري الجديد في عدن ممثلاً بالجبهة القومية، ساعد كثيراً في إتمام صفقة الاستقلال على حساب جبهة تحرير الجنوب اليمني، والأطراف المحافظة الوطنية الأخرى.

و أخيراً قبل الإمام أحمد نصائح أطبائه بضرورة السفر إلى روما للعلاج، فتوجه إليها جواً في ١٦ نيسان/ أبريل ١٩٥٩م، تاركاً خلفه ولي عهده البدر يواجه جملة من المشاكل التي لم تُتح له - في غياب والده - إجراء أي إصلاحات حقيقية، باستثناء استمرار تعاونه مع الرئيس عبد الناصر في دعم الكليات العسكرية حديثة النشأة بالمدربين، وإعلان توجهات سياسية محدودة. وقد انقسم الأحرار في عدن بين مؤيد لتيار البدر، وبين آخر كان قد تبلور لديه أن البديل هو الثورة والنظام الجمهوري. وكان بعض مشايخ القبائل من حاشد وبكيل يحاولون أن يركبوا موجة أي تغيير قادم. وقد تقاطرت أعداد كبيرة من القبائل إلى

العاصمة، التي وقع فيها خلال شهر حزيران/ يونيو وفي مدينة تعز شغب تورط فيه بعض الجنود، وقتل قاض وأخوه في تعز، في الوقت الذي لم يتمكن البدر من حسم الأمر بشكل سريع، كان يُدلي بمزيد من الوعود الإصلاحية مخالفاً بذلك سياسة والده المتشددة. وقد بلغت هذه الأخبار الإمام أحمد في مشفاه الإيطالي، فقرر العودة بحراً مروراً ببور سعيد حيث كان في استقباله في الميناء الرئيس جمال عبد الناصر، ومعه أركان حكومته في ٧/ ٨/ ١٩٥٩م، وكان ذلك ثاني لقاء بعد اجتماع جدة، كما أنه كان آخر لقاء بينهما، ولن يحول الحول حتى يتم الافتراق النهائي بسبب تأميمات تموز/يوليو الشهيرة في الجمهورية العربية المتحدة وأرجوزة الإمام أحمد الناقدة لذلك، واعتبار تلك القوانين مخالفة للشريعة الإسلامية. لقد عاد الإمام أحمد غاضباً هائجاً إلى الحديدة في العاشر من آب/ أغسطس ١٩٥٩م، وكان ابنه البدر قد رتب له استقبالاً شعبياً كبيراً خفف من حدة غضبه، غير أنه ألقى في اليوم الثاني خطاباً نارياً هدد فيه كل من تورط في الحوادث والاضطرابات، وأقسم فيه «قسماً لا هوادة فيه لأقطعن رأس كل أبيض وأسود متى رفعت إلي مَظْلمة عنه ...». مضيفاً عبارته المتحدية الشهيرة «و من كذّب جرّب وهذا الفرس وهذا الميدان!» وكان هذا عنوان الصفحة الأولى في اليوم التالي لصحيفة (فتاة الجزيرة) في عدن، كما كان بعد أقل من خمس سنوات مطلع آخر قصيدة مشهورة للزعيم والشاعر الكبير محمد محمود الزبيري، غداة يوم اغتياله عقب الثورة (نيسان/ أبريل ١٩٦٤م) في شمال صنعاء، وهكذا وبهيبة الإمام أحمد وشخصيته المحاربة والقوية أعاد الاستقرار والأمن في البلاد ولو إلى حين، كما ألغى كل قرارات ابنه السابقة.

كان كل ذلك هدوء ما قبل العاصفة؛ فالغليان الشعبي وشدة الإمام في معاقبة مثيري الاضطرابات بما فيها إعدام بعض رؤوس المشايخ ؛

كالشيخ حسين الأحمر وابنه حميد، وسجن آخرين، أدى إلى عمل فردي بطولي هو الإقدام في محاولة مخفقة على اغتيال الإمام أحمد في مستشفى الحديدة يوم ١٧ آذار/ مارس ١٩٦١م، قام بها الملازم محمد العلفي ضابط أمن المستشفى ومعه زميلان له (الهندوانة واللَّقِيَّة)، وقد أصيب الإمام بجراحات غير قاتلة، وانتحر العلفي، وجرى محاكمة الآخرين وأعدما، كما سجن كثيرون. ولقد كان للحادث أثره الكبير، وقد دفع بطلائع خريجي الكليات العسكرية إلى التفكير الجدي في العمل السري للإعداد لثورة تقضي على النظام الإمامي، وقد تم في شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه تشكيل الضباط الأحرار " على غرار ما حدث في مصر"، الذي عمل بشكل سري لبلوغ أهداف الثورة، وكان تكوينه من صغار الضباط. وحدث في الشهر نفسه إطلاق الإمام لأرجوزته التعيسة، فأعلن عبد الناصر في خطاب جماهيري إلغاء الاتحاد الثلاثي، وهاجم الإمام أحمد ونظامه الرجعي. وقُبيل ذلك بثلاثة أشهر، وفي ٢٨ أيلول/ سبتمبر وقع انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة، ووجدت مصر نفسها في وضع صعب، ولهذا لم تتردد في دعم أي حركة وطنية في اليمن متوقّعة، كما أنها كانت مستمرة في دعم الثوار في الجنوب.

واقتربت النهاية يوم ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢م بوفاة الإمام أحمد حميد الدين، ولم تكن الوفاة مفاجئة للمهتمين بالشأن اليمني، المنتظرين والمتربصين في الداخل وفي القاهرة بقرب نهاية الرجل، بل ونهاية نظام الحكم نفسه. وكان ولي العهد محمد البدر غير موفق منذ اليوم الأول لإعلانه خلفاً لأبيه، فقد نشرت (الأهرام) وغيرها من الصحف المصرية والعربية في اليوم الثاني رداً على تعزية الرئيس عبد الناصر في وفاة أبيه، بأنه «سيمضي على خطا والده الرشيدة!»، ومع أن مصر قد حسمت أمرها قبل ذلك منسقة مع كل الأطراف من أحرار سابقين وقيادة شابة (لا تعرف

الكثير عن رجالها)، فقد كانت سياسة البدر على خطا والده القشة التي قصمت ظهر البعير، فقد أبلغت مصر قادة الحركة بأن عليهم إعلان الثورة، وسوف تلقي بثقلها العسكري والسياسي لدعم الثورة ومواجهة أي خطر خارجي، خاصة من الشمال (المملكة العربية السعودية). وكان الأمر كذلك، فقد نفّذ الضباط الأحرار ثورتهم يوم ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢م، وبعد مواجهة مع قصر الإمام البدر نجحت الثورة وأعلنت الجمهورية مدعومة بكبار الضباط؛ بمن فيهم رئيس حرس البدر الزعيم عبد الله السلال الذي أصبح رئيساً للجمهورية، وفرّ الإمام البدر شمالاً، ووصلت القوات المصرية تباعاً لتدخل في قتال وحرب كانت السعودية داعمة فيها للجانب الملكي الآخر من القبائل اليمنية، ولسنوات عجاف سبع انتصرت في آخرها حكمة العقلاء في النظام الجمهوري، وتمت المصالحة الوطنية عام ١٩٧٠م وهو العام نفسه الذي رحل في صيفه الرئيس جمال عبد الناصر، بعد أن خسر حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧م وسحب قواته من اليمن عقب ذلك.

* * *

١٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٣ واستقلال الجنوب

كان نجاح ثورة ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢م وقيام الجمهورية العربية اليمنية التي انخرط في الدفاع عنها يمنيون من الجنوب، عاملاً مهماً في دعم ثورة الجنوب ضد الوجود الإنجليزي، والتي انطلقت بشكل مدوٍّ وقوي في الرابع عشر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٣م من جبال ردفان، وكان للموقف المصري الداعم عسكرياً ودعائياً أهمية كبيرة في نجاح الثورة، وقبول بريطانيا في آخر الأمر لإجراء محادثات الجلاء، والتي تمت في جنيف في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧م. ورأس الجانب

اليمني (الجنوبي) قحطان الشعبي، الذي أصبح أول رئيس «لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية» بعد يوم الاستقلال في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧م، وقد توفي بسجنه في عدن في حزيران/ يونيو ١٩٧٢م. وإذا كانت الجمهورية العربية اليمنية دخلت في الشمال في اقتتال وصراع مع الملكيين انتهيا بالمصالحة الوطنية عام ١٩٧٠م، فقد وقعت الجمهورية الجنوبية في صراع عقائدي من نوع آخر، بين أحزاب تقدمية ويسارية متطرفة أخرى شابها عمق قبلي أدى إلى اقتتال وأحداث دموية مؤسفة، كان آخرها في ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦م.

* * *

المصادر والمراجع

١- العربية والمعرّبة :

أباظة (فاروق عثمان):

-الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢ - ١٩١٨م)، الهيئة المصرية للكتاب، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥م.

-عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.

-سياسة بريطانيا في عسير (أثناء الحرب العالمية الأولى)، دار المعارف - (د.ت).

البردوني (عبد الله):

-اليمن الجمهوري، ١٩٨٥م.

الجبارات (د. محمود محمد هلال):

-العلاقات اليمنية الأمريكية في عهد الإمام يحيى، عمّان، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨م.

الجرافي (أحمد بن أحمد):

-حوليات العلامة الجرافي، تحقيق أ.د حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر - دمشق، دار الفكر المعاصر - بيروت، ١٩٩٢م.

الجرافي (عبد الله عبد الكريم):

-المقتطف من تاريخ اليمن، القاهرة، ١٩٥٦م.

بن دغر (د. أحمد):

-اليمن تحت حكم الإمام أحمد ١٩٤٨ - ١٩٦٢م، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٤م.

رضا (محمد رشيد):

-المنار واليمن (١٨٩٨ - ١٩٣٤م)، تحقيق ودراسة أ.د. حسين بن عبد الله العمري.

حماد (د.مجدي):

-جامعة الدول العربية، عالم المعرفة، الكويت، (ط٢)، ٢٠٠٧م.

الريحاني (أمين):

-ملوك العرب، (ط١)، بيروت.

الرّيس (كوكب نجيب):

-جامعة الدول العربية ماذا بقي منها، رياض الرّيس للكتب والنشر/ بيروت، (ط٢)، ٢٠١١م.

سالم (د. سيد مصطفى):

-تكوين اليمن الحديث، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٣م. وط٢، ١٩٧١م.

الشامي (أحمد محمد):

-رياح التغيير في اليمن، المطبعة العربية، جدة، ١٩٨٤م.

الصايدي (د. أحمد قايد):

-حركة المعارضة اليمنية في عهد الإمام يحيى، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٢م.

مكرو (إريك):

-اليمن والغرب، تعريب أ.د. حسين بن عبد الله العمري، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م، (ط٣)، ٢٠٠٩م.

المقدمي (حسين عبدالله):

-ذكريات وحقائق للتاريخ، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ٢٠٠٤م.

الموسوعة اليمنية (٤ أجزاء):

-مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٢م.

ناجي (سلطان):

- التاريخ العسكري لليمن، (١٨٩٣- ١٩٦٧م)، ط٣، صنعاء، ٢٠٠٤م.

نُعمان (أحمد محمد):

-مذكرات أحمد محمد نعمان، تحقيق د. علي محمد زيد، نشر المعهد الفرنسي، صنعاء، ٢٠٠٦م.

-أطروحات علمية (غير منشورة)

الشامي (د. فؤاد عبد الوهاب):

-رسالة دكتوراه تحت إشرافي بعنوان (علاقة الإدارة العثمانية بالإمام يحيى ١٩٠٤ - ١٩١٨)، جامعة صنعاء، ٢٠٠٨م.

عروة (صفا):
-اليمن والجامعة العربية (١٩٤٥ - ١٩٦٢)، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، ٢٠١٠م.

صحف عربية

-الأهرام (١٩٤٧، ١٩٤٨، ١٩٥٨، ١٩٦٠ -١٩٦٢م).
-صوت اليمن (١٩٤٧ - ١٩٤٨م).
-فتاة الجزيرة (١٩٤٧- ١٩٤٨، ١٩٥٥ - ١٩٦٢م).

٢- المصادر الأجنبية:

أ- باللغة التركية:

- مذكرات المشير أحمد عزّت باشا (صيحة رَجُل).

- AHMET IZZET PASA FERYADIM

- Nehir Yayinlari,ISTANBUL,1993.

- مذكرات عصمت إينونو :

- Ismet Inunu.

- Ikinci Adam.

- Hazurlyin,Serket Swreyya Akademir.

- Remzi Kitab Evi.,3Baski,Istanbul.

ب - باللغة الإنجليزية:

- Bidwell, Robin : The Tow Yemenis, London, 1978.

- J.F. HEALEY and V.PORTER, Studies on Arabia in Honour of G.Rex Smith DXFORD, 2002.

- R.B Serjeant + R.Bidwell :Arabian Studeis Cambridge (1-8 Vol.).

- R.J. GAVIN: ADEN UNDER BRITISH RULE (1832-1967), London, 1975.

ملحق ختامي لأحداث سنة ١٩٦٧[1]

الاتحاد (الفيدرالي) وبريطانيا العظمى

أثناء تولي السيد دنكن ساندي لوزارة المستعمرات، كانت سياسة الحكومة البريطانية تُملي بأن يتم منح الاستقلال لعدن ومحمياتها في العام ١٩٦٨م، وعلى أساس قيام دولة اتحادية للجنوب العربي، وبحيث يجب استمرار استخدام القوات البريطانية للقاعدة العسكرية بعدن بعد الاستقلال، والذي سيخضع لإبرام اتفاقية للدفاع [الحماية] مقبولة. بيد أنه مع حلول العام ١٩٦٦م ظهر تحول جديد باتخاذ بريطانيا قراراً بالانسحاب الشامل؛ مدنياً وعسكرياً معاً، من اتحاد الجنوب العربي بتاريخ ١ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٨م، وأنه سيتم طلب مساعدة منظمة الأمم المتحدة للاتحاد خلال الفترة الانتقالية. وكان الهدف هو الخروج، وإبقاء حكومة مستقرة لها استقلالها وتضم كل أطراف الاتحاد والتي تكون قادرة على مقاومة جميع محاولات الهدم الخارجي، ولا سيما من قِبل مصر. ولم يكن حينها لبريطانيا رغبة في إبرام اتفاقيات للدفاع [الحماية] بعد الاستقلال. ومع ذلك، وفي مطلع شهر آذار/ مارس ١٩٦٧م فقد ظهرت تنبيهات، وعلى لسان السيد هيلي أثناء جلسة مجلس العموم، بأن

(١) هذه ترجمة ألحقتها في الطبعة الثانية من تعريبي لكتاب (أريك ماكرو) «اليمن والغرب». (ص ٣٦٤ - ٣٧٢)، الصادرة عن دار الفكر بدمشق ٢٠٠٩م، وذلك لمن لم يتيسر له الحصول على الطبعة الجديدة هذه.

الحكومة البريطانية " تخطط للانسحاب في ١٩٦٨م، وأن القوات البريطانية ستقوم بالانسحاب بعدما تحصل عدن على استقلالها" .

وبينما كان مرتقباً من الأمين العام للأمم المتحدة السيد يوثانت بأن يقوم، خلال منتصف شهر آذار/ مارس ١٩٦٧م، بتسمية الشخص المكلف برئاسة البعثة إلى عدن، كانت مصر تبذل كل جهودها لإعاقة وصول تلك البعثة. وكانت مهمة البعثة القيام بالترتيب والإشراف على تطبيق دستور الاتحاد، وتأسيس حكومة مؤقتة وحتى إتمام عملية انتقال السلطة.

كما أنه مع نهاية شهر شباط/ فبراير كان أغلبية أعضاء الاتحاد قد توصلوا لاتفاق على المقترحات الدستورية، والذي سيتم تفعيله بعد نيل الاستقلال الذي لم يتبق على موعده سوى ١٠ أشهر، حيث كان من المؤمل تسليم هذه المقترحات لبعثة الأمم المتحدة عند وصولها إلى عدن، كذلك كان متوقعاً من البعثة أن تضع خطة لتنظيم الأمن الداخلي قبل رحيل القوات البريطانية.

غير أن الحكومة الفيدرالية كانت تعاني مشاكل كثيرة؛ فإلى جانب تفشي الانشقاق والارتياب في صفوفها، كانت معارضتها من قِبل جماعات برعاية مصرية وكذا معظم سكان عدن من خلال الصحافة والمظاهرات. وعلاوة على كل ذلك، وجدت صعوبات جمَّة للوصول إلى توافق على من سيكون القائد لهذه الدولة حديثة الاستقلال، حتى إن عدن شهدت مستوى غير مسبوق من الإرهاب، الأمر الذي هدَّد بحدوث تفكك تام للاتحاد. وقد سعت ثلاثة أحزاب سياسية رئيسية، وبدرجات متفاوتة، إلى إحراج الحكومة: فاتحاد جنوب اليمن (حزب الاتحاد)، والذي يُعد حزباً معارضاً معتدلاً مدعوماً بعض الشيء من طبقة عدن المتوسطة، فيما يستمد تحفيزاً أكثر من حضرموت ولحج، ويحصل على مساعدات جسيمة

من المملكة العربية السعودية، كان يهدف إلى الحصول على دولة موحدة ذات سيادة، وضد أي نفوذ مصري أو يمني [شمالي]، ومن ثم كان يشكل انزعاجاً خاصاً لعبد الناصر. أما الحزبان الآخران؛ وهما جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل (جبهة الجنوب)، وجبهة التحرير القومي (جبهة التحرير) الممنوع، ففي حين أن بينهما صراعاً مريراً إلا أنهما كانا عنيفين في معارضتهما لحزب الاتحاد وللحكومة الاتحادية. ومع أن معظم جبهة التحرير كان في المنفى؛ إما بمصر أو باليمن [الشمال]، وهو يُعد الأقوى من الأحزاب الثلاثة، إلا أنه كان رافضاً لتقبل أي توجيهات من مصر، ولذلك كان يحتم على عبد الناصر تمويل جبهة التحرير وتسليحها، لتنفيذ الأعمال الإرهابية التي ستمكنه من تثبيت سيطرته. أما فيما يتعلق بالجيش، فسيبقى في الجنوب البريطانيون على كل الأحوال حتى نهاية عام ١٩٦٧م. وكان الجيش الاتحادي النظامي سابقاً جيش عدن الليوي (Aden Protectorate Ievies) ينتظر جانباً غير مكتوف اليدين، حيث تم رفع قوامه إلى عشر كتائب، واستمرت التدريبات برعاية بعض الضباط البريطانيين الذين ظلوا للمساعدة في بناء القوة على مدى العام المنصرم [١٩٦٦م] لإخلاء مراكزهم بشكل تدريجي أمام الضباط العرب.

ب - اليمن ومصر

مع مطلع سنة ١٩٦٦م كان عبد الناصر مهدداً بخسارة كل ما قد جازف به في اليمن، نتيجة مواجهته لتصدي القوات العسكرية الملكية. ومع ذلك، فربما وجد ما يجدد حماسه للدفع بمحاولة أخيرة للإمساك بزمام الأمور، عندما قررت بريطانيا العظمى بأن يتم انسحاب قواتها قبل نهاية ١٩٦٧م. هكذا، تعهد عبد الناصر بمد الإرهابيين في عدن بالأسلحة، ولإزالة سلطة الحكومة الاتحادية، كما أنه كان يُسخر كل نفوذه للعمل

على إضعاف [سلطة] العائلة الملكية الهاشمية في الأردن، وكذا لمعارضة المملكة العربية السعودية، وذلك أنَّ تلكما المملكتين قد أيدتا بقايا النظام الإمامي في اليمن، وهو الأمر الذي هدد بإعادة اصطفاف كامل للبلدان العربية. وبدا حينها تلاشي حجر الزاوية الذي كان يوحد العرب من خلال صراعهم ضد إسرائيل، وكانت سورية وحدها تواصل الصراع، فيما خلصت المملكة العربية السعودية من نزاعها مع بريطانيا وتم وضع الأمر جانباً، وكذلك فعل سلطان مسقط وعُمان في نزاعه على واحة البريمي [مع السعودية]. ومن ناحية أخرى فقد تم إعادة العلاقات الدبلوماسية بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا منذ فترة طويلة. ومع ذلك، لم يكن بمقدار الأردن تقديم مساعدة تذكر للملكيين في اليمن، والأمر نفسه بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية نظراً لانشغالها ببناء قواتها العسكرية، وبمشاركة بعض التعاقدات البريطانية؛ تحسباً لاحتمالات حدوث أي هجوم عدواني من جمهورية يمنية تندفع بالسياسات التوسعية لعبد الناصر. ومن جانب آخر، قامت كل من الأردن وتونس بسحب اعترافيهما بالنظام الجمهوري في اليمن. وبات عبد الناصر مقتنعاً بأن بريطانيا تخطط ليكون للمملكة العربية السعودية دور سري في الجنوب العربي بعد نيله الاستقلال.

أما بداخل اليمن فقد كانت الأوضاع غير مستقرة ويسودها التفكك، حيث كان الكثير من المناطق [الشمالية] لا تزال تحت سيطرة الإمام، الذي لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية [في الواقع] تعترف بسلطته، إلا أن بريطانيا كانت تعتبره الحاكم الشرعي [الفعلي] للبلاد. أما بالنسبة إلى اليمنيين الجمهوريين؛ فقد انقسموا بين مؤيدين للسياسة المصرية بوجود ٦٥,٠٠٠ جندي مصري، وآخرين معارضين لقيام جمهورية ذات نفوذ مصري أو العودة لنظام الإمامة، وإنما مع قيام جمهورية ديمقراطية.

ومع حلول عام ١٩٦٧م، كان هناك تغير كبير في الأوضاع، حيث تم أخيراً خلع [الرئيس المشير] السلّال من الرئاسة [في ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧م]، وعاد إلى صنعاء أولئك الجمهوريون اليمنيون الذين كانوا قيد الأسر في سجون القاهرة لمعارضتهم السياسة المصرية[١]، كما قام الجمهوريون والملكيون ببعض المحاولات للوصول إلى تفاهم فيما بينهم. وفي الوقت نفسه، فقد أدى احتدام القتال بين (جبهة التحرير)

(١) كانت حكومة الفريق حسن العمري قد توجهت إلى القاهرة في ٨ آب/ أغسطس ١٩٦٦م، يصحبها أعضاء المجلس الجمهوري الراحلان القاضي عبد الرحمن الإرياني والأستاذ أحمد محمد نعمان والقاضي عبد السلام صبرة، وكبار قادة الجيش وآخرون؛ لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر وبحث الأزمة السياسية معه، لكنه رفض المقابلة وكلف وزير الحربية اللواء شمس بدران الذي أبلغهم - بعد انسحاب الفريق العمري - بأنهم حضروا ليسمعوا لا ليتحدثوا! وتم في اليوم نفسه القبض عليهم - عدا القاضيين الإرياني وصبرة والوزير الخالدي ووزير الحربية العميد حسين الدفعي - وأودعوا السجن الحربي، بشكل مهين وغريب وخارج كل الأعراف السياسية والدبلوماسية، ولم يخرجوا إلا بعد أكثر من عام (١١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٧م) وبعد هزيمة حزيران/ يونيو بثلاثة أشهر. وفي الوقت نفسه جرى في صنعاء اعتقال ما يزيد على ثلاث مئة شخصية سياسية وقبلية [وكاتب هذه الأسطر الموظف في وزارة الخارجية من بينهم]، وجرى إعدام العميد محمد الرعيني وزميله هادي عيسى، وهما من قادة ثورة ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢م. وكان أن قام المرحوم الرئيس عبد الله السلال بزيارة خارج اليمن، وعاد سجناء مصر، فتم بسهولة انقلاب ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧م، وتكون مجلس جمهوري برئاسة القاضي عبد الرحمن الإرياني، ودخلت اليمن بشطريها مرحلة تاريخية مهمة. فقد استقل الجنوب في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر، وانسحبت بريطانيا، كما كانت القوات المصرية قد غادرت الشمال (ج.ع.ي) لتواجه الجمهورية الملكيين بشعار " الجمهورية أو الموت! ". وقد كان النصر حليفها خاصة في ملحمة السبعين يوماً، التي كان قائدها الفريق حسن العمري ومعه كل القيادة؛ أبطال النصر شهداء وأحياء من بعد. وما النصر إلا من عند الله. [المعرب]

و(جبهة الجنوب) [القومية] - الأمر الذي عجل في انسحاب القوات البريطانية من الجنوب العربي - لصعود جبهة التحرير، ومن ثم كسب ولاء جيش الجنوب العربي. ولم تكن حكومة جبهة التحرير قد تم تفعيلها مع انسحاب القوات البريطانية من عدن، ومع ذلك فقد تمكن موظفون بريطانيون وعرب من تسيير أعمال الإدارة، (كما أنه لم يتضح بعد مدى قدرة حكومة الجبهة الإرهابية في الإبقاء على احترام جميع ضباط جيش الجنوب العربي).

ومتى تمكنت عدن من ضبط أمورها الداخلية، فسيكون عليها أن توجه اهتمامها من جديد نحو الشمال لتقييم الخطر المستمر الذي قد **يواجهها؛ سواءً من يمن جمهوري أو ملكي!**

الحروب الصليبية

(٤٩٣ - ٦٩١هـ/ ١٠٩٨ - ١٢٩١م)

(وأثرها التاريخي في تشويه صورة الإسلام)[١]

١) مدخل - بين المصادر والمصطلح

لعل تاريخ الحروب الصليبية بقرنيها نال من العناية والدراسة في الشرق والغرب وبمختلف اللغات، ما لم تنله أي حقبة من تاريخ القرون الوسطى، حتى مطلع العصر الحديث[٢].

ولهذا فسيكون من الادعاء أن تقدم هذه الورقة توصيفاً وتحليلاً شافياً بأهمية مثل هذا المؤتمر. وحسبي محاولة التقريب والاختصار بين التاريخانية، والربط بين نفس الغايات والأهداف القديمة، وما لحقها من استعمار واستيطان في العصر الحديث.

---

(١) ورقة مقدمة إلى مؤتمر (الإعلام المعاصر بين حرية التعبير والإساءة إلى الدين)، المنعقد في جامعة صنعاء من ١٢- ١٤/ ٢/ ١٤٣٠ هـ/ ٧-٩/ ٢٠٠٩م، بترتيب من رابطة العالم الإسلامي ووزارة الأوقاف و الإرشاد باليمن.

(٢) أثبت الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الإسكندرية في كتابه (العدوان الصليبي على مصر)، وبقية سلسلة كتبه المفيدة ضمن (مكتبة الحروب الصليبية)، دراسة ضافية عن مختلف مصادر تلك الحروب بالعربية والأجنبية يمكن الرجوع إليها.

لقد ذكر العلامة الراحل الأستاذ الدكتور إحسان عباس في أواخر القرن المنصرم[١] بأننا : "لو تجاوزنا المصادر التي كُتبت إبّان الحروب الصليبية نفسها، إلى الكتب التي كتبها المؤرخون المحدثون عن تلك الحروب، لكانت في عددها شيئاً يعزُّ على الحصر .."، ويضيف متسائلاً: "إن هذا النشاط غير المألوف في تأريخ ظاهرة واحدة يثير الاهتمام، ويبعث على التساؤل : لماذا كل هذه الجهود في هذا النطاق؟!" .

لقد لحظ [المستشرق الفرنسي] كلود كاهن[٢] أن أحد عوامل ذلك الإقبال على كتابة تاريخ الحروب الصليبية، يرجع إلى أن ثمة رغبة متواصلة لدى الغرب في تأكيد ذاته، في مواجهة الشرق والعرب المسلمين، وأن عودة الغرب إلى هوية العصور الوسطى ومنطقها أقوى مما هو الحال في بعض بلدان الشرق الإسلامي، وقد تزايدت تلك العودة بعد زوال المعسكر الاشتراكي، وبروز حاجة دول الحضارة الغربية إلى خصم جديد تتهرب من خلاله من حل مشاكلها المزمنة، وهذا الخصم الجديد هو العرب والمسلمون عامة.

ولم يفُت الأستاذ كاهن أن يلحظ اهتمام الإسرائيليين بتاريخ الحروب الصليبية؛ إذ إنهم رأوا في الصليبيين روّاداً لتحقيق مشروعهم في اغتصاب فلسطين[٣].

كما نبه العلامة عباس بأن الدكتور زياد العسلي قد وقف عند هذه الظاهرة، في مقدمته على ترجمته لكتاب (تاريخ الحملة الصليبية إلى

---

(١) إحسان عباس : تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة والأيوبيين (٤٩٠ - ٦٥٠ هـ)، عمّان، الجامعة الأردنية، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م، ص ٥ - ٦.

(٢) ك . كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ١٧.

(٣) نفسه، ص ١٨.

القدس)، لفوشيه الشارتري [عمّان وبيروت ١٩٩٠م]. كما درسها ووضح عواملها الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم في كتابه (رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية)[١].

وقد يطول بنا الحديث لو رجعنا إلى كتابات المرحوم العالم الأستاذ عبد الوهاب المسيري الموسوعية حول بعض ما تطرقنا إليه.

ويذكر ههنا مرجع غربي مهم عول عليه بعض المهتمين أمثال الأستاذ عباس، هو: (A History of Crusades) صدر المجلد الأول منه عام ١٩٦٩م، والمجلد السادس سنة ١٩٨٩م، وضمت هذه المجلدات (٤١٠٦ صفحات)، واضطلع بكتابة كل فصل منه أحد المتخصصين، "ويبدو أن الهدف من تكليف عدد كبير من الباحثين بكتابة فصوله، إنما كان إبراز الدور الغربي (الأوربي - الأمريكي) متآزراً متكاملاً في إخراج مرجع كبير معتمد مهم، يمثل حقبة مهمة في تاريخ الغرب، وإبراز قدرة القوم على التعاون والالتزام بالمواعيد، وعدم ابتسار المشروعات بداعي التواكل أو السأم من تراخي الزمن..."[٢]، وهو للأسف ما نفتقده في مثل هذه الدراسات.

وقد صدر عندهم غير هذا كثير، لعل من آخر ما وصلنا مجلد تجاوز ألف صفحة بعنوان: (Gods War New History of The Crusades)، صدر عن جامعتي هارفارد وكمبردج (٢٠٠٦م) للمؤرخ (Prof. Christopher Tyerman) الذي يدرس في الأولى (هارفارد) ويحاضر في كلية أكسفورد في التاريخ الوسيط.

(١) صدر عن مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٣م.
(٢) تاريخ بلاد الشام، ص٨.

٢) حول المصطلح

أما عن "المصطلح"، ففي مصادرنا العربية بدءاً بابن الأثير (ت٦٣٠ هـ/ ١٢٣٤م) في كامله، وغيره من المعاصرين ومن تلاهم، لم يستخدموا مصطلحات مثل (الصليبيين) أو (الحملة الصليبية)، وإنما تكلموا على (الفرنجة) و(حرب الفرنجة) أو عن (حركة الفرنج)[١].

"وفي القرن الثامن عشر ميلادي ابتكرت الكلمة الإنجليزية (Crusade)، والكلمة الألمانية (Keuzzug). وقد وقع المؤرخون العرب فيما بعد في شباك الترجمة عن الأوربيين، وبدؤوا يستخدمون مصطلح (صليبي) و (حملة صليبية) في تناولهم للظاهرة، التي درج أسلافهم على معالجتها تحت مصطلح (الفرنج)، ووجه الخطورة في هذا المصطلح عندما يستخدم في اللغة العربية، أنه يوحي بأن الحركة كانت دينية ترتبط بالصليب رمز المسيحية، ولا تضعها في إطارها الصحيح باعتبارها مغامرة استيطانية متعصبة. ومن ناحية أخرى فإن استخدام هذا المصطلح يظلم المسيحيين الشرقيين، الذين عانى قسم كبير منهم من وحشية الفرنج وعدوانهم"[٢].

---

(١) انظر: ابن الأثير : الكامل، ط دار صادر، بيروت، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م، ١٠/ ١٢٤، ٢٧٢، ٢٧٨، ٣٦٤، ٣٦٩، ٣٩٩، ٤٦٠، ٥٥٣، ٦٢٠، ٦٦٢، . ... وكذا على - سبيل المثال - ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء ١.

(٢) الموسوعة العربية، دمشق، ط١، ١٩٨٣م، ٨/ ٢١٠، ولا تحدد الموسوعة البريطانية تاريخ استخدام المصطلح لكنها توضح بأن استخدامه بشكل عام لمعنى " ....الحملات العسكرية التي نظمها المسيحيون الغربيون ضد القوى الإسلامية، لتتمكن من السيطرة على مدينة القدس المقدسة (أورشليم) والأماكن التي عاش فيها السيد المسيح" Encyclopedia Britannica (Crusades)، ٥/ ٢٧٩، وذكر =

٣) الإطار التاريخي

درج معظم المؤرخين على اعتبار أول العقد الأخير من القرن الخامس الهجري، أو آخر القرن الحادي عشر الميلادي، هو بداية تاريخ الحروب الصليبية في المشرق العربي، في حين أنها في حقيقة الأمر قد ابتدأت في الغرب العربي (في الأندلس) قبل ذلك في سنة ثمان وسبعين وأربع مئة (١٠٨٦م) "...بظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها...." كما يذكر ابن الأثير[١]، وذلك على يد ألفونسو السادس (AL Fonso V) ملك قشتالة، وقد استمرت الحروب حتى سقوط غرناطة آخر معقل للعرب في إسبانيا سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م في يد فردناند ملك آرغون وإيزابيلا ملكة قشتالة، وهو التاريخ المهم نفسه الذي اكتشف فيه كولومبس أمريكا أو (العالم الجديد).

اشتهر من الحملات الصليبية (ثمان حملات) اتجهت أربع منها نحو بلاد الشام؛ وهي (الأولى : ١٠٩٥- ١٠٩٩م، والثانية : ١١٤٦ - ١١٤٨م، الثالثة : ١١٨٩ - ١١٩٢م، موقعة حطين بقيادة صلاح الدين، والسادسة) واثنتان إلى مصر (الخامسة : ١٢١٧ - ١٢٢١م، والسابعة: ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٨- ١٢٥٤م) والرابعة إلى القسطنطينية: ١٢٠٢ - ١٢٠٤م والثامنة نزلت شمال إفريقيا، ولن نتناول تفاصيلها، بل الإشارة إلى أهمية بعضها.

= ديورانت في "قصة الحضارة "، ط ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م، دار الجيل بيروت، بأن الاسم الإنجليزي مشتق من اللفظ الإسباني (Crusada) أي علامة الصليب، ١٥/ ١١.

(١) الكامل، ١٠/ ١٤٢، ٢٧٢.

ومع أن تلك الحروب اتخذت الصفة الدينية، وكان للحماس الديني دوره الكبير، فإن هذه الحركة الصليبية انبعثت عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادي عشر، ولم تكن الحروب الصليبية وليدة أحد هذه الأوضاع والعوامل فحسب، وإنما هي نتيجة لتفاعل جميع العوامل السابقة[١].

لقد كان نظام الإقطاع قد تمخض عن إيجاد فئات كثيرة من المحاربين الذين لا عمل لهم إلا الحرب، وفي مقابل ذلك " أعلنت الكنيسة عن أنها تؤكد مَبْدأي " هدنة الرب وسلام الرب" وبذلك حدّت من مجالات الحروب في أوربا، فكان لا بد لها أن توجه أولئك المحاربين إلى ميادين جديدة، واتفق ذلك مع قيام المتحمسين لإصلاح حال الكنيسة وتقويتها، وكان المطلوب لتحقيق ذلك تقوية سلطة البابا، بحيث يكون هو المرجع الأعلى الذي لا يستطيع أحد أن يتحدى سلطته، ولذلك كان الباباوات هُم المسؤولين عن تعبئة النفوس لشن حرب على من تعدهم الكنيسة كفاراً أو وثنيين"[٢]. ومع أن البابا أوربان الثاني (Urban II) هو المحرض الأكبر المباشر على الحرب، فإن تهيئة النفوس لحرب مقدسة قد بدأت قبله بسنوات؛ فقد انتخب غريغوري السابع (Gregory VII) سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣م، وكان من أشد الباباوات حماسة لاستقلال الكنيسة عن كل سلطة دنيوية، كما كانت تُخايله فكرة المصالحة والتوحيد بين الكنيستين الشرقية والغربية، على إثر معركة ملاذ كرد (منزي كرت - Menzikert) شمالي بحيرة وان بأرمينية، التي فتحت الأناضول كلها أمام

(١) الموسوعة العربية، ٨/ ٢١١؛ فيشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ١/ ١٧١ أوربا (العصور الوسطى) - نقله إلى العربية : محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، (ط٤)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م، ١/ ١٧٥ .

(2) Crusades:207/5, E. Britannica

السلاجقة، وهُزم البيزنطيون فيها وأسر إمبراطورهم رومان الرابع رومانوس، ديوجينيس عام (١٠٧١م)، لكن السلطان السلجوقي ألب أرسلان لم يتابع تقدمه، بل أطلق سراح الإمبراطور وانكفأ عائداً إلى بغداد؛ لأن هدفه الأول كان انتزاع بلاد الشام ومصر من الخلفاء الفاطميين الذين استولوا على الشام، وقد حدث ذلك في السنة التالية (١٠٧٢م)[١].

٤) الأوضاع في بلاد الشام ومصر

لقد مهد الطريقَ للاجتياح الصليبي الذي استمر نحو قرنين الأوضاعُ السيئة في بلاد الشام ومصر، والتمزق السياسي الذي كانت تعاني منه بلاد الشام، وعجز الخلافة العباسية في بغداد عن القيام بدور فعال في حركة الجهاد والمقاومة، كما أن الخلافة الفاطمية في القاهرة كانت تمر بمرحلة الضعف والشيخوخة، وتعاني أزمات سياسية نتيجة ضعف الخلفاء وغرائبية تصرف بعضهم، كالحاكم بأمر الله (ت٤١١هـ/ ١٠٢١م) في سياسته الدينية وتشدده مع أهل الذمة نصارى ويهوداً، وهدمه لكنائس النصارى في مصر، " وتدميره كنيسة الضريح المقدس في القدس"، إلى غير ذلك من التصرفات المتعارضة مع الشريعة الإسلامية السمحة وحُسن معاملة المسلمين لأهل الذمة، بداية بالعهدة العُمرية للخليفة عمر بن الخطاب لأهل إيليا (بيت المقدس) وما تلاها في التاريخ الإسلامي[٢].

---

(١) د.عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٩٣م، (ط٢)، ص ٢٨.

(٢) انظر الدكتور أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد) الهيئة المصرية، ٢٠٠٧، ص ١٦٣ - ١٧٩، د. عبد الفتاح محمد العويسي: تقديم بيت المقدس، دار الفكر العربي، القاهرة، (ط٣)، ٢٠٠٨م، ص ١٠٧- ١٨٦، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٣٨٢.

وقد وصف المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في سِفره " تاريخ البشرية" الوضع بقول مُحكم: ".....كان القرنان العاشر والحادي عشر فترة محنة وبلاء بالنسبة لسكان العالم الإسلامي، فتمزق الدولة الإسلامية الواحدة، جاء عقبه تحلل في أمور النظام والقانون، وقد حسّن حكم البويهيين في بغداد والحكم السلجوقي الذي حل محله الأمور بعض الشيء، إلا أن هذا كان محلياً ومؤقتاً، وقد تعرض العالم الإسلامي لهجوم فئات مسيحية، وشرٌّ من ذلك أنه تعرض لهجوم برابرة بدو رعاة، كانوا قد اعتنقوا الإسلام اسمياً"[١]، والمقصود بهم قبائل التتار (المغول)، وإعمالهم الخراب والدمار في المشرق العربي، وفي بغداد بشكل خاص التي قضي فيها على الخلافة العباسية (٦٥٦هـ/ ١٢٦٠م) ودمرت ذخائرها العلمية والأدبية والعمرانية.

٥) إرهاصات الحروب الصليبية وأسبابها

سبق الإشارة في مدخل هذا البحث إلى كثرة المصادر وما كُتب عن الحروب الصليبية، ولعل سفر الأستاذ الكبير ول ديورانت " قصة الحضارة[٢]" بمجلداته الأربعين، من أحسن المراجع الغربية وأكثرها موضوعية في معظم مواده الواسعة، ولهذا فقد كان من أوائل ما حولته الجامعة العربية (الدائرة الثقافية) للترجمة إلى العربية، في خمسينيات القرن العشرين. وتأتي أهميته كذلك من استخدامه المصادر الأولية وهي في مجملها أوربية ومعاصرة لتلك الحملات، وهو في الواقع ما تغفله

(١) أرنولد توينبي : تاريخ البشرية، نقله إلى العربية الدكتور نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م، ص ٥١١.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة، ط المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت - تونس، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

مصادرنا أو تجهله، وهي من المراجع الموثوقة في هذا الموضوع وغيرها من تاريخ الحضارة الإنسانية عموماً والعربية منها بشكل خاص.

وسوف نقتبس عنه بعض ما يفيدنا في أسباب تلك الحروب الصليبية؛ بداية بالأولى والثانية والثالثة التي عاصرها الناصر صلاح الدين الأيوبي ومعركة حطين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، حتى نهاية تلك الحملات منها وأسْر الملك لويس التاسع ملك فرنسا في مصر (الحملة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩م)، وإخفاقها النهائي (٦٨٩هـ/ ١٢٩١م)، وما كانت نتائجها، مع الإشارة إلى مصادرنا الأخرى في الموضوع.

يرى الأستاذ ديورانت بأن الحروب الصليبية : " كانت الفصل الأخير من مسرحية العصور الوسطى، ولعلها أجدر الحوادث بالتصوير في تاريخ أوربا والشرق الأدنى؛ ففيها عمد الدينان العظيمان - المسيحية والإسلام - آخر الأمر، وبعد قرون من الجدل والنقاش، إلى الفصل الأخير فيما يشجر بين بني الإنسان من نزاع، ونعني به محكمة الحرب العليا، وفيها بلغ كل تطور في العصور الوسطى، وكل توسع في الشؤون التجارية والديانة المسيحية، وكل تحمس في العقيدة الدينية، وكل ما في الإقطاع من قوة، وفي الفروسية من فتنة وبهجة، بلغ هذا كله غايته في حرب دامت مئتي عام في سبيل روح البشرية والأرباح التجارية".

وأول سبب مباشر للحروب الصليبية هو زحف الأتراك السلاجقة [إلى بيزنطة]، وكان العالم قبل زحفهم قد كيّف نفسه بقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى، وكان الفاطميون حكام مصر قد حكموا فلسطين حكماً سمحاً رحيماً، استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة في ممارسة شعائر دينها، إذا استثنينا بعض فترات قصيرة قليلة، نعم إن الحاكم بأمر الله - الحاكم المجنون - دمّر كنيسة الضريح المقدس عام

(١٠١٠م)، ولكن المسلمين أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها...وكان في أورشليم كنائس أخرى كثيرة، وكان في وسع الحجاج المسيحيين أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكل حريتهم..لكن الأتراك [السلاجقة] انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين في عام ١٠٧٠م، وأخذ الحجاج المسيحيون بعد عودتهم إلى أوطانهم " يتحدثون عمّا يلاقونه من ظلم وتحقير".

وكان السبب المباشر الثاني من أسباب الحرب الصليبية ما حاق بالإمبراطورية البيزنطية من ضعف شديد الخطورة. لقد ظلت هذه الإمبراطورية سبعة قرون طوال تقف في ملتقى الطرق المارة بين أوربا وآسيا، تصد جيوش آسيا وجحافل السهوب، أما في الوقت الذي نتحدث عنه فإن اضطراب شؤونها الداخلية، وشيعتها الخارجة على الدين، وانفصالها عن الغرب على أثر الانشقاق الذي حدث في عام ١٠٥٤م، كل هذا قد أوهنها وجعلها أضعف من أن تؤدي رسالتها التاريخية. وبينما كان البلغار، والشناق Patznaks، والكومات Comans، والروس يدقون أبوابها في أوربا، كان الأتراك يقطعون أوصال ولاياتها الآسيوية، وكاد الجيش البيزنطي أن يقضى عليه عند ملاذ كرد في عام ١٠٧١م، واستولى السلاجقة على حمص وأنطاكية (١٠٨٥م)، وطرسوس، ونيقية ذات الماضي التاريخي الديني، وأخذوا يتطلعون من وراء مضيق البوسفور إلى القسطنطينية نفسها، واستطاع الإمبراطور ألكسيوس الأول (١٨٠١ - ١١١٨م) أن يحتفظ بجزء من آسيا الصغرى بعقد صلح مذل، ولكنه لم تكن لديه القدرة الحربية على صد الغارات التي توالت بعدئذ على أملاكه، ولو أن القسطنطينية سقطت وقتئذ في أيدي الترك لأمكنهم الاستيلاء على شرق أوربا كله، ولَمَا بقي لمعركة تور [جنوب غربي باريس] (٧٣٢م) أثر ما. وبعث ألكسيوس برسله إلى أربان الثاني وإلى

مجلس بياسنزا (Piacenza)، يستحث أوربا اللاتينية لتساعده على صدّ هجمات الترك، وكان من أقواله : " إن من الحكمة أن يحارَب الأتراك في أرض آسيا، بدل أن ننتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا الغربية".

وثالث الأسباب المباشرة للحروب الصليبية هو رغبة المدن الإيطالية؛ بيزا، وجنوا، والبندقية، وأملفى (Amalfi)، في توسيع ميدان سلطانها التجاري الآخذ في الازدياد. ذلك أنه لما استولى النورمان على صقلية من المسلمين (١٠٦٠ - ١٠٩١م)، وانتزعت الجيوش المسيحية منهم جزءاً كبيراً من إسبانيا (١٠٨٥م وما بعدها)، أصبح البحر المتوسط الغربي حراً للتجارة المسيحية، وأثرت المدن الإيطالية وقويت؛ لأنها هي الثغور التي تخرج منها غلات إيطاليا والبلاد الواقعة وراء الألب، وأخذت هذه المدن تعمل للقضاء على تفوق المسلمين في الجزء الشرقي من البحر المتوسط، وتفتح أسواق الشرق الأدنى لبضائع غرب أوربا. ولسنا نعلم إلى أي حد كان هؤلاء التجار الإيطاليون قريبين من مسامع البابا.

وصدر القرار النهائي من أربان نفسه، وإن كان غيره من الباباوات قد طافت بعقولهم هذه الفكرة. فقد دعا جربرت (Grebert)، حينما أصبح البابا سلفستر الثاني (Sylvester II)، العالم المسيحي إلى إنقاذ بيت المقدس، ونزلت حملة مخفقة في بلاد الشام (١٠٠١م تقريباً)، ولم يمنع النزاع المرير القائم بين جريجوري السابع وهنري الرابع البابا من أن يقول بأعلى صوته : " إن تعريض حياتي للخطر في سبيل تخليص الأماكن المقدسة، لأفضل عندي من حكم العالم كله".

وكان هذا النزاع لا يزال على أشده حين رأس أربان مجلس بياسنزا في آذار/ مارس من عام ١٠٩٥م، وأيد البابا في هذا المجلس استغاثة

ألكسيوس، ولكنه أشار بتأجيل العمل حتى تعقد جمعية أكثر من هذا المجلس تمثيلاً للعالم المسيحي، وتبحث في شن الحرب على المسلمين. ولعل الذي دعاه إلى طلب هذا التأجيل ما كان يعلمه من أن النصر في مغامرة في هذا الميدان البعيد غير مؤكد، وما من شك في أنه كان يدرك أن الهزيمة ستحط من كرامة العالم المسيحي والكنيسة المسيحية إلى أبعد حدّ، وأكبر الظن أنه كان يتوق إلى توجيه ما في طابع أمراء الإقطاع والقراصنة النورمان من حب القتال إلى حرب مقدسة، تصد جيوش المسلمين عن أوربا وبيزنطة. ولقد كان يحلم بإعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوي، ويرى بعين الخيال عالماً مسيحياً عظيم القوة متحداً تحت حكم البابوات الديني، وروما تعود حاضرة للعالم، وكان هذا تفكيراً أملته رغبة في الحكم لا تعلو عليها رغبة.

وظل البابا بعدئذ بين شهري آذار/ مارس وتشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٠٩٥م يطوف بشمال إيطاليا وجنوب فرنسا، يستطلع آراء الزعماء ويضمن المعونة لما هو مقدم عليه. واجتمع المجلس التاريخي بمدينة كلير مونت (Clermont) في مقاطعة أوفرني، وهُرع إليه آلاف الناس من مئة صقع وصقع لم يقف في سبيلهم برد تشرين الثاني/ نوفمبر القارس. ونصب القادمون خيامهم في الأرض المكشوفة، وعقدوا اجتماعاً كبيراً لا يتسع له بهو، وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف على منصة في وسطهم مواطنهم أربان الفرنسي، وألقى عليهم بالفرنسية أقوى الخطب وأعظمها أثراً في تاريخ العصور الوسطى، ومنها قوله:

" على مَن إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم ؛ أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوّي قلوبكم؛

أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن التي لوثت ودنست"[١].

وعلت أصوات هذا الجمع الحاشد المتحمس قائلة: "تلك إرادة الله Eieu LI Voit"، وردّد أربان هذا النداء ودعاهم إلى أن يجعلوه نداءهم في الحرب، وأمر الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدروهم. ويقول وليم مالمزبري : William Malmsbury "وتقدم بعض النبلاء من فورهم، وخروا راكعين بين يدي البابا، ووهبوا أنفسهم وأموالهم لله"، وحذا حذوهم آلاف من عامة الشعب، وخرج الرهبان والنساك من صوامعهم ليكونوا جنود المسيح بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ لا بمعناه المجازي، وتنقَّل البابا النشيط إلى مدن أخرى، وظل تسعة أشهر يخطب داعياً إلى الحرب الصليبية، ولما بلغ رومة بعد أن غاب عنها سنتين، استقبلته بالترحاب أقدم مدن العالم المسيحي تقوى، وأخذ على عاتقه أن يحل جميع الصليبيين من جميع القيود التي تعوقهم عن الانضمام إلى المقاتلين. ولم يلق في عمله هذا مقاومة جيدة؛ فحرّر رقيق الأرض، وحرّر التابع الإقطاعي طوال مدة الحرب مما عليه من الولاء لسيده؛ ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا المحاكم الإقطاعية، وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم. وأمر بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين والمسيحيين، وإن لم يقو على تنفيذ أمره هذا، ووضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الإقطاعي؛ وهكذا توحدت أوربا كما لم تتوحد في تاريخها كله، ووجد أربان نفسه السيد المرتضى، من الوجهة النظرية على الأقل، لملوك أوربا

(١) قصة الحضارة، ١٥/ ١٢ - ١٥.

على بكرة أبيهم. وسرت روح الحماسة في أوربا كما لم تسر فيها من قبل، في أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة[١]".

٦) الحرب الصليبية الأولى (٤٨٨ - ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٥ - ١٠٩٩م)

انضوت جماعات لا عدد لها تحت لواء الحرب مدفوعة إلى هذا بمغريات جمة: منها أن كل من يخر صريعاً في الحرب قد وعد بأن تغفر له جميع ذنوبه، وأذن لأرقاء الأرض أن يغادروا الأراضي التي كانوا مرتبطين بها، وأعفي سكان المدن من الضرائب، وأُجلت ديون المدينين على أن يؤدوا فائدة نظير هذا التأجيل، وتوسع البابا في سلطاته توسعاً جريئاً فأطلق سراح المسجونين، وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم في فلسطين، وانضم آلاف من المتشردين إلى القائمين بهذه الرحلة المقدسة، وأقبل كثيرون من الأتقياء المخلصين ليخلصوا الأراضي التي ولد فيها المسيح ومات؛ منهم رجال سئموا الفقر الذي كانوا يعانونه، والذي ظنوا أن لا نجاة لهم منه، ومنهم المغامرون التواقون إلى الاندفاع في مغامرات جريئة في بلاد الشرق، ومنهم الأبناء الصغار الذين يرجون أن تكون لهم إقطاعيات في تلك البلاد، ومنهم التجار الذين يبحثون عن أسواق لبضائعهم، والفرسان الذين غادر أرضهم أرقاؤهم فأصبحوا لا عمل لهم، ومنهم ذوو النفوس الضعيفة الذين يخشون أن يرميهم الناس بالجبن وخور العزيمة. ونشطت الدعاوى المألوفة في الحروب، فأخذت تؤكد الاضطهاد الذي يلقاه المسيحيون في فلسطين، والمعاملات الوحشية التي يلقونها على أيدي المسلمين، والأكاذيب عمّا في العقيدة الإسلامية من زيغ وضلال؛ فكان المسلمون يوصفون بأنهم يعبدون تمثالاً للنبي محمد؛ وأخذ الثرثارون

(١) نفسه، ١٥/ ١٦ -١٧.

" الأتقياء" يقولون : إن النبي قد أصابته نوبة صرع التهمته في أثنائها الخنازير البرية. ورويت قصص خرافية عن ثروة الشرق، وعن الغانيات السمر ينتظرن أن يأخذهن الرجال البواسل.

وهذه البواعث المختلفة لا يمكن أن تجتمع من أجلها جموع متجانسة، يستطاع إخضاعها لنظام عسكري. وقد بلغ من أمر هذا الخليط أن النساء والأطفال أصروا، في كثير من الحالات، على الانضمام إلى صفوف المجاهدين لتقوم النساء بخدمة أزواجهن، والأبناء بخدمة آبائهم. ولعلهم كانوا على حق في هذا الإصرار لأن العاهرات سرعان ما تطوعن لخدمة المحاربين. وكان أربان قد حدد لبدء الرحيل شهر آب/ أغسطس من عام ١٠٩٦م، ولكن الفلاحين القلقين الذين كانوا أوائل المتطوعين لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد، فسار جحفل منهم عدته نحو اثني عشر ألفاً، لم يكن بينهم إلا ثمانية من الفرسان، وبدأ رحلته من فرنسا في شهر آذار/ مارس بقيادة بطرس الناسك (Peter the Hermit) وولتر المفلس (Walter the Penniless (Guatar Sans - Avoir، وقام جحفل آخر، ربما كانت عدته ٥٠٠، من ألمانيا بقيادة القس جتسشوك (Gattschalk)، وزحف ثالث من أرض الرين بقيادة الكونت إمكو اللينجيني (Count Emico of Le- inngen). وكانت هذه الجموع غير النظامية هي التي قامت بأكثر الاعتداءات على يهود ألمانيا وبوهيميا، وأبت أن تطيع نداء رجال الدين والمواطنين من أهل تلك البلاد، وانحطت حتى استحالت إلى وقت ما وحوشاً كاسرة، تستر تعطشها للدماء بستار من عبارات التقى والصلاح. وكان المجندون قد جاؤوا معهم ببعض المال، لكنهم لم يجيئوا إلا بالقليل الذي لا يغني من الطعام، وكان قادتهم تعوزهم التجارب فلم يعدوا العدة لإطعامهم؛ وقدر كثير من الزاحفين المسافة بأقل من قدرها الصحيح، وكانوا وهم يسيرون على

ضفاف الرين والدانوب، كلما عرجوا على بلدة من البلدان، يسألهم أبناؤهم في لهفة : أليست هذه أورشليم؟ ولما فرغت أموالهم، وعضهم الجوع، اضطروا إلى نهب ما في طريقهم من الحقول والبيوت، وسرعان ما أضافوا الفسق إلى السلب والنهب. وقاومهم أهل البلاد مقاومة عنيفة، وأغلقت بعض المدن أبوابها في وجوههم، وأمرهم بعضها أن يرحلوا عنها بلا مهل، ولما بلغوا آخر الأمر مدينة القسطنطينية، بعد أن نفدت أموالهم، وهلك منهم من هلك بفعل الجوع والطاعون، والجذام، والحمى، والمعارك التي خاضوا غمارها في الطريق، رحب بهم ألكسيوس؛ ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام، فانطلقوا في أرباض المدينة، ونهبوا الكنائس، والمنازل، والقصور. وأراد ألكسيوس أن ينقذ عاصمته من هذه الجموع الفتاكة التي أهلكت الحرث والنسل وكانت فيها كالجراد المنتشر، فأمدها بالسفن التي عبرت بها البوسفور، وأرسل إليها المؤن، وأمرها بالانتظار حتى تصل إليها فرق أخرى أحسن منها سلاحاً وعتاداً. ولكن الصليبيين لم يستمعوا إلى هذه الأوامر، سواء كان ذلك لجوعهم أو لقلقهم أو نفاد صبرهم، فزحفوا على نيقية. وخرجت عليهم قوة منظمة من الترك، كلها من مهرة الرماة، وأبادت هذه الطليعة من فرق الحرب الصليبية الأولى فلم تكد تبقي على أحد منها. وكان ولتر المفلس من بين القتلى؛ وأما بطرس الناسك فكانت نفسه قد اشمأزت من هذه الجموع التي لا تخضع لقيادة، وعاد قبل المعركة إلى القسطنطينية، وأقام فيها سالماً حتى عام ١١١٥م.

وبينا كانت هذه الحوادث تجري في مجراها، كان الزعماء والإقطاعيون الذين حملوا الصليب قد جمع كل منهم رجاله في إقليمه. ولم يكن من بين هؤلاء الزعماء ملوك، فقد كان فيليب الأول ملك

فرنسا، ووليم الثاني ملك إنجلترا، وهنري الرابع ملك ألمانيا، كان هؤلاء جميعاً مطرودين من حظيرة الدين حين كان أربان الثاني يدعو إلى الحروب الصليبية، ولكن كثيرين من الأشراف انضموا إلى صفوف المقاتلين، وكانوا كلهم تقريباً من الفرنسيين أو الفرنجة. وبهذا كانت الحروب الصليبية الأولى في الأغلب الأعم مغامرة فرنسية، ومن أجل هذا ظل الشرق الأدنى إلى هذا اليوم إذا ذُكر غرب أوربا سماه بلاد الفرنجة (الإفرنج)، وكان الدوق جدفري (Godfrey) سيد بويون (Bouillon) وهي مقاطعة صغيرة في بلجيكا، يجمع بين صفات الجندي والراهب ؛ كان شجاعاً محنكاً في الحرب، وورعاً إلى حد التعصب في الدين؛ وكان الكونت بوهمند من سادة ترنتو (Taranto) ابن روبرت جسكارد (Robert Guiscard) قد ورث عن أبيه كل شجاعته وبراعته، وكان يحلم باقتطاع مملكة له ولجنوده النورمان من الأملاك البيزنطية السابقة في الشرق الأدنى، وكان معه ابن أخيه تانكرد الهوتفيلي (Tancred of Hauteville) الذي شاءت الأقدار أن يكون بطل رواية أورشليم المنجاة (Jeusalem Delivered) لتاسو (Tasso) . وكان بهي الطلعة، شجاعاً لا يهاب الردى، شهماً، كريماً، يحب المجد والمال، يعجب به الناس كافة ويرونه المثل الأعلى للفارس المسيحي، وكان ريموند (Reymond) كونت طولوز (طلوشة) قد حارب المسلمين من قبل في إسبانيا، فلما تقدمت به السن وهب نفسه وثروته العظيمة إلى حرب أكبر وأوسع، ولكن غطرسته أفسدت عليه نبله، ودنس بخله تقواه.

وسارت هذه الجموع إلى القسطنطينية، ثم عبرت هذه الجيوش البالغ عددها نحو ثلاثين ألفاً المضيقين في عام [٤٩٠هـ][1] ١٠٧٩م، وكانت لا

(١) انظر : ابن الأثير، ١٠ / ٢٧٤.

تزال موزعة القيادة. وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساماً على أنفسهم من المسيحيين؛ فقد أنهكت الحروب قوة المسلمين في إسبانيا، ومزقت المنازعات الدينية وحدتهم في شمال إفريقية، وكان الخلفاء الفاطميون في الشرق يمتلكون بلاد الشام الجنوبية، في حين كان أعداؤهم السلاجقة يمتلكون جزأها الشمالي والقسم الأكبر من آسية الصغرى. وخرجت أرمينيا الغربية على فاتحيها السلاجقة وتحالفت مع الفرنجة. وزحفت جيوش أوربا يؤيدها هذا العون كله وحاصرت نيقية. واستسلمت الحامية التركية في المدينة بعد أن وعدها ألكسيوس بالمحافظة على حياتها (١٩ حزيران/ يونيو سنة ١٠٩٧م)، ورفع إمبراطور الروم العلم الإمبراطوري على حصنها، وحمى المدينة من النهب، وأرضى الزعماء الإقطاعيين بالعطايا السخية، ولكن الجنود المسيحيين اتهموا ألكسيوس بأنه متآمر مع الأتراك. واستراح الصليبيون في المدينة أسبوعاً زحفوا بعده على أنطاكية، والتقوا عند دوريليوم بجيش تركي تحت قيادة قلج أرسلان، وانتصروا عليه انتصاراً سفكوا فيه كثيراً من الدماء (أول تموز/ يوليو سنة ١٠٧٩م)، واخترقوا آسيا الصغرى دون أن يلقوا فيها عدواً غير قلة الماء والطعام، والحر الشديد الذي لم تكن دماء الغربيين قادرة على احتماله. ومات الرجال والنساء والخيل والكلاب من العطش، في أثناء هذا الزحف الشاق الذي اجتازوا فيه خمس مئة ميل؛ فلما عبروا جبال طوروس انفصل النبلاء بقواتهم عن الجيش الرئيسي؛ ليفتحوا لأنفسهم فتوحاً خاصة بهم.

وينقل ديورنت وصف المؤرخ الإخباري صاحب جستا فرنكورم (Gesta Francorum) لأنطاكية بأنها: "مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن". وقاومت المدينة حصار ثمانية أشهر[١] مات

(١) ابن الأثير، ١٠/ ٢٧٢ - ٢٧٨.

خلالها كثير من الصليبيين؛ بسبب تعرضهم لأمطار الشتاء القارس والبرد والجوع، وقد وجد بعضهم غذاءً جديداً بامتصاص "أعواد حلوة سموها زكرا Zucra" (وهي كلمة مشتقة من لفظ السكر العربي)، ففيها ذاق "الفرنجة" طعم السكر للمرة الأولى، وعرفوا أنه يصنع من عصير أحد النباتات المزروعة. وقدمت العاهرات للغزاة متعاً أشد خطراً من السكر، من ذلك أن رئيساً للشمامسة قتله الأتراك وهو مضطجع مع عاهرة سورية. وجاءت الأنباء في شهر أيار/ مايو من عام ١٠٩٨م أن جيشاً إسلامياً كبيراً، يقوده كربوغة أمير الموصل يقترب من أنطاكية، لكن هذه المدينة سقطت في أيدي الصليبيين (٣ حزيران/ يونيو ١٠٩٨م) قبل أن يصل إليها هذا الجيش ببضعة أيام. وخشي كثيرون من الصليبيين من عجزهم عن مقاومة جيش كربوغة، فركبوا السفن في نهر العاصي، وفروا هاربين. وزحف ألكسيوس بقوة من جنود الروم، لكن جماعة من الفارين غرروا به، فأدخلوا في روعه أن المسيحيين هزموا، فعاد أدراجه ليدافع عن آسيا الصغرى، ولم يغفر له الصليبيون هذه الفعلة. وأراد قسيس من مرسيلية يدعى بطرس بارثلميو (Peter Bartholomew) أن يبعث الشجاعة من جديد في قلوب الصليبيين، فادعى أنه عثر على الحربة التي نفذت في جنب المسيح، ولما سار المسيحيون للقتال رفعت هذه الحربة أمامهم كأنها علم مقدس، وخرج ثلاثة فرسان من بين التلال في ثياب بيض حين ناداهم الرسول البابوي أدهمار، وسماهم الشهداء القديسين موريس، وثيودور، وجورج، وبعث ذلك في قلوب الصليبيين روحاً جديدة، وتولى بوهمند القيادة الموحدة فانتصروا انتصاراً حاسماً، ثم اتهم بارثلميو بأنه ارتكب خدعة دينية، وعرض أن يرضى بحكم الله فيجتاز ناراً مشتعلة ليثبت باجتيازها صدق دعواه. وأجيب إلى طلبه فاخترق ناراً مشتعلة في حزم من

الحطب، وخرج سالماً في الظاهر، ولكنه توفي في اليوم الثاني من أثر الحروق أو من الإجهاد الذي لم يحتمله قلبه، وأزيلت الحربة من بين أعلام الجيش الصليبي.

وقضى أولئك الزعماء ستة أشهر أعادوا فيها تنظيم قواهم وجددوا نشاطهم، ثم زحفوا بجيوشهم على أورشليم. وبعد حروب دامت ثلاث سنين، نقص فيها عددهم إلى ١٢,٠٠٠ من المحاربين، وقفوا في اليوم السابع من شهر حزيران/ يونيو عام ١٠٩٩م وهم مبتهجون متعبون أمام أسوار المدينة. وكان من سخريات التاريخ أن الأتراك الذين جاؤوا ليقاتلوهم، قد أخرجوا من المدينة قبل ذلك الوقت بعام، وكان مخرجوهم هم الفاطميين. وعرض الخليفة الفاطمي على الصليبيين أن يعقد معهم الصلح، مشترطاً على نفسه أن يؤمن الحجاج المسيحيين القادمين إلى أورشليم، والذين يأتونها للعبادة. ولكن بوهمند وجدفري طلبا التسليم بغير قيد أو شرط، وقاومت حامية الفاطميين المكونة من ألف رجل الحصار مدة أربعين يوماً، فلما حل اليوم الخامس عشر من شهر تموز/ يوليو قاد جدفري وتانكرد رجالهما وتسلقوا أسوار المدينة، وتم للصليبيين الفوز بغرضهم بعد أن لاقوا في سبيله الأمرَّين. وفي هذا يقول القس ريمند الآجيلي شاهد العيان:

"وشاهدنا أشياء عجيبة؛ إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا في النار. وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل".

ويروي غيره من المعاصرين تفاصيل أدقّ من هذه وأوفى؛ يقولون إن النساء كُنّ يُقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون

بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعُمَد، وذُبح السبعون ألفاً[١] من المسلمين الذين بقوا في المدينة، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء. واحتشد المنتصرون في كنيسة الضريح المقدس، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت في يوم ما المسيح المصلوب. وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجاً بالنصر، وبتحرير المدينة، ويحمدون الرحمن الرحيم على ما نالوا من فوز!

لقد كان من نتائج الحملة الأولى بعد الاستيلاء على القدس والانتصار في عسقلان، حيازة فلسطين وتكوين ثلاث دويلات صليبية في الرها وأنطاكية، والثالثة مملكة بيت المقدس.

٧) الحملة الصليبية الثانية (٥٤١ - ٥٤٣ هـ/ ١١٤٦ - ١١٤٨م)

كان لسقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين أكبر الأثر في انبعاث حركة المقاومة والجهاد، وتحملت إمارات السلاجقة العبء الأكبر في قتالهم، ومع أنه قد تحققت بعض الانتصارات فقد بقيت محدودة نحو ثلاثين عاماً، حتى ظهر عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، ليقود حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية؛ فطوع قوته وموارده في خدمة الجهاد ضد الصليبيين، وقد تمكن عماد الدين بين عامي ٥٢٤ - ٥٣٨هـ/ ١١٢٩ - ١١٤٣م من توسيع رقعة دولته بضم حماة وحمص وبعلبك إليها، وحررت قواته عدداً من المدن والحصون من أيدي الصليبيين، وفي عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م نجح في تحرير الرها. وقد أثار هذا الاستيلاء فزع العالم المسيحي الغربي، فبدأت الاستعدادات لإرسال

(١) يذكر ابن الأثير نفس الرقم ولا يذكر ما أصاب اليهود في حوادث ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م، ١٠/ ٢٨٣.

حملة صليبية ثانية (٥٤١ - ٥٤٣ هـ/ ١١٤٦ - ١١٤٨ م) على رأسها كونراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا، ولكن هذه الحملة أخفقت منذ بدايتها، ووقع معظم رجالها فريسة بيد المسلمين. وكان عماد الدين قد توفي غَيلة سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م بيد أحد مماليكه، فحمل الراية ابنه نور الدين، وكان يماثله في شجاعته ويفوقه في قدراته[١].

وبعد نحو ربع قرن على تلك الحرب الصليبية الثانية، وإثر وفاة نور الدين زنكي، غدا السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م) موحد مصر وبلاد الشام، هو القوة الرئيسة التي تواجه دويلات الفرنجة التي كانت في طريقها إلى الانهيار؛ بسبب النزاعات والخلافات بين البارونات والكونتات.. وانتظار المدد الصليبي من أوربا.

٨) معركة حطين[٢] (٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣هـ تموز/ يوليو ١١٨٧م)

استطاع القائد البطل صلاح الدين الأيوبي، بجلد وحكمة وخلال خمسة عشر عاماً، أن يوحد الأجزاء المتفرقة في جبهة عربية متحدة من الجزيرة والشام شمالاً، إلى مصر والنوبة واليمن جنوباً، ويحقق استيلاؤه على اليمن بعد استكمال ضم الديار المصرية إلى بلاد الشام، أهدافاً متعددة، من أهمها "إحكام السيطرة على البحر الأحمر؛ فهو مفتاح التجارة المشرقية، كما أن اليمن كانت في ظل الحكم الصليحي تابعة للدولة الفاطمية، فالاستيلاء عليها هو استكمال للقضاء على الدولة الفاطمية.."[٣].

---

(١) الموسوعة العربية، مرجع سابق، ٨/ ٢١٢؛ قصة الحضارة، ١٥/ ٢٦ - ٢٩؛ تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة، إحسان عباس، ص ١٠٩.

(٢) عن تفاصيل المعركة ونتائجها راجع: تاريخ بلاد الشام، مصدر سابق، ص ١٧٦ - ٢٢٦. ومثبت بالحواشي مصادره الأجنبية المعاصرة لها.

(٣) انظر: تاريخ بلاد الشام، ص ٢٢٨،

لقد أدرك صلاح الدين أن القضاء على مشروع الصليبيين لا يتم إلا بتصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، وكان أن أنزل بهم هزيمة فادحة في معركة حطين بالقرب من طبرية في ٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣هـ/ ٤ تموز (يوليو) ١١٨٧م، واستمرت انتصاراته فسقطت المعاقل الصليبية الواحدة تلو الأخرى، حتى حرر القدس ودخلها في رجب ٥٨٣ هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧م، "وضرب أروع الأمثلة في التسامح والكرم والإنسانية في التعامل مع الأهالي والأسرى"[١].

كان استرجاع بيت المقدس حادثة كُبرى اهتزت لها أوربا، مما عجل بإرسال حملة ثالثة اشترك فيها فريدريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وقد لقي حتفه في الطريق غرقاً وفيليب الثاني ملك فرنسا، ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا الذي واصل سيره واستولى على جزيرة قبرص وبلغ عكا في حزيران/ يونيو ١١٩١م، وكان له مع الناصر صلاح الدين شأن كبير من البطولات والترفع عن الصغائر في معارك متعددة، انسحب بعدها إلى بلده بعد توقيع اتفاق بينهما (صُلح الرملة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢م)، لمدة ثلاثة أعوام لكنه لم يعد بعدها.

وهكذا كانت هذه الحملة قد نجحت فقط في الاستيلاء على عكا، لكنها لم تفلح في الاستيلاء على بيت المقدس، وفي العام الثاني عاد صلاح الدين من القدس إلى دمشق وبها توفي (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)[٢].

٩) إخفاقات بقية الحملات الصليبية

لقد برز في الحملة السادسة فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا وإيطاليا، الذي كان مطروداً من الكنيسة بقرار الباب غريغوري التاسع (سنة ٦٢٥هـ/

(١) قصة الحضارة، مرجع سابق، ص ٣٦ - ٤٤.
(٢) قصة الحضارة، ص ٤٥.

١٢٢٧م)، لكنه كان متضلعاً في اللغة العربية وآدابها، وقد حدث أن الملك الكامل استنجد بفريدريك في خلافه مع أخيه المعظم، فقبل مساعدته مقابل أن يعطيه بيت المقدس، فوقعا اتفاقية يافا بهذا الخصوص وقد رجع إلى إيطاليا سنة ١٢٢٩ م.

"وقد أفلح هذا الإمبراطور الطريد فيما عجز عنه المسيحيون في مئة عام كاملة، والتقت الثقافتان المسيحية والإسلامية فترة من الزمن متفاهمتين تحترم إحداهما الأخرى، ولكن غريغوري التاسع نادى بأن تلك المعاهدة سبّة للعالم المسيحي، وأبى أن يقرها، ولما رجع فريدريك إلى بلاده استولى النبلاء المسيحيون المقيمون في فلسطين على بيت المقدس " بيد أنها لم تلبث أن سقطت في يد المسلمين سنة ١٢٤٤م[١]، حتى الحرب العالمية الثانية في القرن العشرين.

سيكون من الإطالة بمكان الاستمرار في تتبع ما بقي من حملات، ولهذا فبعد الإشارة إلى تلك الحملة الفاشلة على مصر برئاسة الملك لويس التاسع، الذي تم أسره بعد هزيمته في معركة المنصورة، بعد أن كان قد احتل دمياط وزحف نحو الدلتا، وهناك كانت الهزيمة الكبرى بقيادة الظاهر بيبرس الذي كان له دور لاحق مهم ضد الصليبيين، وأُسر في تلك المعركة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ولم يفرج عنه إلا بعد دفع فدية، فتوجه بحراً إلى عكا في صفر ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ومن ثم إلى فرنسا، وقام بمحاولة حملة ثامنة إلى تونس لتحقيق حلمه لكنه مات ومعه مات حلمه.

وفي الدراسة الواسعة للدكتور جوزيف نسيم يوسف (الجزء الثاني) الذي أفرده بعنوان "العدوان الصليبي على مصر"، تفاصيل قيمة بمختلف المصادر والمراجع الأجنبية والعربية المعاصرة، ويمكن الإحالة إليه[٢]،

(١) نفسه؛ ١٥/ ٥٧.

(٢) مرجع سبقت الإشارة إليه.

وقد ألحق به (الجزء الرابع) "الوحدة وحركة اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي" استفدنا منه بعض آراء واستنتاجات، بالإضافة إلى ما يمكن قوله من امتداد حوار الثقافات والحضارات، والدعوة إلى التسامح والتفاهم بين الديانات السماوية.. كملحق بالبحث.

يوم الرّزم

الرّزم - ويقال: الرّدم بالدال، وهو خطأ ذكره ابن هشام في السيرة[١] - موضع في الجوف ينسب إلى وادي ملاحا، وهو أرض خصبة بها غابات وغيل كبير قرب الحراشف (شمال صنعاء على بعد نحو ٤٠ كم).

وهناك كان (يوم الرّزم) يوماً من أعظم أيام العرب في الجاهلية بين قبيلتي مَذحج وهَمْدان اليمانيتين، انتصرت فيه همدان على مَذحج، وكان من نتائج تلك الهزيمة إجلاء قبيلة (مراد) المذحجية عن الجوف حيث كانت تسكن، وملكته هَمدان التي يقودها الأجدع بن مالك بن أميّة الوادِعي (فارس هَمدان وشاعرها في عصره)، وكان زوج كَبْشة بنت مَعْدي كَرب أخت عَمرو بن مَعْدي كرب الزُّبيدي، ولهما فيها شعر ذكره الهَمْداني[٢].

لقد تزامنت تلك الموقعة مع (يوم بدر) في السنة الثانية للهجرة.

أما سببها فقد كان ذلك على صَنم (يَغوث) ؛ يكون في هؤلاء مرة وفي هؤلاء مرة، فأرادت مراد أن تغلبهم عليه فقامت الحرب، وكانت تلك نتيجتها في (يوم الرّزم) بعد قتال بطولي ذهب فيه فرسان مشهورون من الجانبين، إلا أن همدان قتلت من مذحج بشراً كثيراً "وقتل يومئذ فوارس

(١) محمد بن أحمد الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: القاضي إسماعيل الأكوع، ١٩٨٤م، ١/ ١٩٥ و٣٦٦، وانظر: سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٤٤.
(٢) شمس العلوم بتحقيقنا: (الرّزم)، ٤/ ٢٤٨٨.

الأرباع بنوذ والغُصّة"[١]، وهم أبناء الحُصين بن شداد بن قنان رأس بني الحارث وفارسها، (وسُمي ذا الغصة لأنه كظم الغيظ والحزن على بنيه)، وإنما سُموا فوارس الأرباع - (وهم عمرو وزياد ومالك) - لأن كلّ واحدٍ منهم إذا كانت له حروب ولي ربعهم، وهم الذين يأخذون ربع الغنيمة، وفيهم يقول الأجدع بن مالك[٢]:

أسَألتني بركائب ورِحالها ونسيت قتل فوارس الأرباع

* * *

وبعد ثمان سنوات من (الرّزم) و(غزوة بدر الكبرى) قدم على رسول الله ﷺ مسلماً سنة عشر - فَروة بن مُسيك بن الحارث المرادي، قبل قدوم عمرو بن مَعْدي كرب الذي لحق مع وفد زُبيد، وقد ورد في السيرة والطبري[٣] ذكر ما حلَّ بمراد وقبيلها (مَذْحج) يوم الرّزم والشعر الذي قاله في ذلك فَروة، ثم قوله لما توجه إلى الرسول الكريم (مفارقاً لملوك كندة) قال:

لما رأيت ملك كندة أعْرضَت كالرجل خان الرجل عِرقُ نَسائها
يـمَّـمـت راحلتي أؤُمُّ محمداً أرجو فَواضلها وحُسنَ ثَرائها

«ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له: يا فروة! هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرَّزم؟ فقال: يا رسول الله، ومن ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الرّزْم لا يسؤوه ذلك!.

فقال رسول الله ﷺ: أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً». وفي رواية أخرى عن فروة بن مسيك قال: «قال رسول الله ﷺ: أكرهت

(١) الهمداني: صفة الجزيرة، بتحقيق الأكوع، ٢٣٧ - ٢٣٨.
(٢) الإكليل، ٢/ ٤٦١ - ٤٦٢.
(٣) سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٤٤؛ الطبري، ط دار المعارف، ٣/ ١٣٢ - ١٣٦.

يومك ويوم هَمدان؟ فقلت: إي والله! أفنى الأهل والعشيرة، فقال: أما إنه خير لمن بقي». فاستعمله رسول الله على مراد وزُبيد ومَذْحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، وكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ[١]. وفي (تاريخ مدينة صنعاء) «أن رسول الله ﷺ لما بعث فروة بن مسيك المرادي أمره ببناء مسجد صنعاء، فبنى مسجد صنعاء وجبانة صنعاء»[٢]، وهناك روايات أخرى تذكر غير فروة من بنى مسجد صنعاء، إلا أن له مسجداً معروفاً باسمه إلى اليوم شمال سور صنعاء. ولفروة رواية عنه ﷺ عند الترمذي وأبي داوود، ومن ذلك حديثه أن النبي ﷺ أمره على قتال من لم يُسْلم من أهل سبا، ثم شرط عليه أن يراجعه في أمرهم، وذكر ابن سعد أن عمر بن الخطاب استعمله على صدقات مذحج[٣].

(١) الطبري، ٣/ ١٣٦، السيرة، ٥/ ٣٤٤.
(٢) تاريخ صنعاء: للرازي، بتحقيق الكاتب، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٢١٥.
(٣) انظر عنه أيضاً: طبقات ابن سعد، ١/ ٣٢٧؛ التهذيب لابن حجر، ٧/ ٢٦٥؛ طبقات فقهاء اليمن: للجعدي، ١٤ و٢٥.

تأملات في شؤون

الإدارة والإصلاحات العُثمانية

في ولاية اليمن[١]

ما من شك بأن اضطراب الأوضاع وفترة الفوضى التي سادت صنعاء والمناطق الشمالية من اليَمن من أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، ساعدت القوات العثمانية عام ١٢٨٩ هـ/ ١٨٧٢ م، للعودة إلى العاصمة بعد أن كانت قد تراجعت عنها إلى الساحل قبل ٢٣ عاماً (عام ١٢٦٥هـ/ آب (أغسطس) ١٨٤٩م).

وبداية لابد من التنويه بالأعمال الجليلة التي تقوم بها الحكومة التركية في بعث أرشيفها العظيم، الذي يُقال إنه يزيد على (مئة مليون وثيقة)؛ ترتيباً وتنظيماً وتسهيلاً للباحثين، وهو عمل يقوم على جهود مئات من الإخوة العلماء والباحثين الأتراك المهتمين بتاريخ أكبر دولة إمبراطورية في العصور الحديثة، وصلت جيوشها إلى قلب أوربا وحاصرت فيينا عاصمة آل هبسبورج عام ١٥٢٩م، وقد غطت ممتلكاتها، بعد انضواء البلاد العربية إليها تدريجياً بعد هزيمة المماليك في معركة مرج دابق عام ١٥١٦م، مساحات شاسعة من الأقاليم توزعت في القارات الثلاث:

(١) ورقة قُدمت في الندوة الدولية حول (اليمن في العهد العثماني) صنعاء (١٦ - ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٩م).

آسيا، وأوربا، وإفريقيا، وكانت هذه الأقاليم تسكنها أقوام وشعوب متنوعة ذات نُظم وتقاليد مختلفة، ولم يكن بوسع الدولة العثمانية إدارة هذه الأقاليم الواسعة من دون اتباع سياسة إدارية حكيمة ومنتظمة[١].. وتدلنا الدراسات الحديثة والمعاصرة التُّركية والعربية بل الأوربية، على مدى غزارة معلومات الأرشيف العثماني التركي في مختلف مواضيع البحث. ولعله من المفيد الإشارة في هذا الصدد إلى ثلاثة كتب حديثة.

الكتاب الأول: في مجلدين كبيرين نحو (١٨٠٠ صفحة) صادرين باللغتين التركية والعربية لعدد من الباحثين الأساتذة والعلماء الأتراك، بإشرافٍ ومساهمةٍ من صديقنا الكريم معالي الأستاذ الدكتور أكمل الدين أوغلي أمين عام المؤتمر الإسلامي عام ١٩٩٩م، عن مركز (أرسيكا) الذي كان رئيساً له بعنوان (الدولة العثمانية تاريخ وحضارة)، وكانت مادة الأرشيف من مصادره المهمة والمفيدة، وقد لفت نظرنا بهذه المناسبة معلومة فيه عن اهتمام الدولة العثمانية بأسطولها وترسانتها البحرية، حين فكرت عام ١٥٦٨م "في شق قناة السويس لكي تتمكن من مساعدة الدول المسلمة في الهند، غير أن هذا المشروع لم يتحقق في حينه"[٢].

ولقد لاحظ كثير من الباحثين بأن فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م، كان دافعاً للتحرك العثماني، فأرسلوا حملة عسكرية بقيادة أحمد مختار باشا الذي استعاد احتلال العاصمة صنعاء عام ١٨٧٢م[٣]، في ظل تلك الأوضاع المضطربة فيها التي ساعدت على تلك العودة.

والكتاب الثاني: للدكتور فاضل بيات، المختص في التاريخ الإسلامي

(١) الدكتور فاضل بيات: الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧م.
(٢) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ١/ ٤١٧.
(٣) إريك مكرو: اليمن والغرب، تعريب الكاتب، ط٣، ص ١١٦.

من جامعة أنقرة والصادر في نيسان/ أبريل ٢٠٠٧م، عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بعنوان (الدولة العثمانية في المجال العربي) دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً [هكذا] (مطلع العهد العثماني إلى أواسط القرن التاسع عشر)، وفيه عن إيالة اليمن الكثير والمفيد، سواء عن الوجود العثماني الأول (١٥٣٦ - ١٦٤٦م) والعودة الثانية حتى نهاية الحرب الأولى، حاشداً في ذلك الكثير من الوثائق؛ كدفاتر التعيينات في الولايات والألوية، ودفاتر المهمة التي تأتي على رأس هذه الوثائق، ويعزو إلى عدم اكتمال تصنيف مقتنيات مركز الأرشيف العثماني بإستانبول، الذي يتضمن وجود نحو ١٥٠ مليون وثيقة، بعض النقص في جوانب البحث الطويل والمهم.

أما الكتاب الثالث: فهو الكتاب الذي أتحفتنا به في العام الفائت ٢٠٠٨م مديرية أرشيف الدولة في الجمهورية التركية الشقيقة، بالتعاون مع المركز الوطني للوثائق في الجمهورية اليمنية، وحمل عنوان (اليمن في العهد العثماني)، معتمداً على أكثر من ١٨٠ وثيقة مختارة تقع تواريخها بين عامي ١٥٤٣ - ١٩٢٢م، ولنا رجعة للحديث عن أهمية مواضيعها.

لقد بقي اليمن ولاية عثمانية خمساً وأربعين سنة، أدارها واحد وعشرون والياً تباينت سياساتهم وفترة ولاياتهم، كان أولهم أحمد مختار باشا (١٨٧٢ - ١٨٧٣م) وآخرهم محمود نديم بك (بالنيابة)، بعد سفر رئيس هيئة الأركان العامة اللواء أحمد عزت باشا إلى ليبيا لمواجهة الإيطاليين في حرب طرابلس، بعد أن وقّع مع الإمام يحيى حميد الدين اتفاق صلح دعّان سنة (١٣٢٩ هـ/ ١٩١١م)، وكان لنديم بك (السوري الأصل) دور مشهود.

ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى وحتى نهايتها (آب/ أغسطس ١٩١٨م)، كان وضع علاقة ولاية اليمن مغايراً، في كثير من الأمور، لبقية

الولايات العربية الأخرى التي سرت فيها روح القومية العربية، وانطلاق ثورة شريف مكة وأبنائه عام ١٩١٦م، بالتعاون مع البريطانيين، ثم الحصاد المرّ لذلك التعاون كما فضحته اتفاقية سايكس - بيكو[١]، وإعلان بلفور بالوطن القومي لليهود في فلسطين.

تنظيم الأتراك العثمانيين ولاية اليمن

وبالعودة إلى الكتاب (الثالث) الذي سبق ذكره، نجد العديد من الوثائق المعروضة على الباب العالي أو منه إلى السلطان، في طلب دعم مشاريع خدمية وإدارية وتعليمية (مدرسية) وصحية وغيرها، وسوف يطول بنا الحديث لو عُدنا إلى بعض ذلك وليس كله، ولكنني أسوق في هذه العُجالة نموذجين لافتين، ما زلنا إلى اليوم نسعى إلى استكمال أمرهما.

الأول: طلب إنشاء مبنى للأرشيف لحفظ وثائق اليمن[٢]، في الوثيقة المؤرخة ٢٥ أيار/ مايو ١٩٠٢م، والمرفوعة من الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) إلى السلطان: "صدرت الإرادة السلطانية بالموافقة". وعلينا اليوم استرجاع الجهود الكبيرة التي حققها الأخ العزيز الأستاذ القاضي علي بن أبي أحمد أبي الرجال منذ ربع قرن، حتى أصبح المركز الوطني للوثائق حقيقة نجتمع اليوم برعايته وتعاونه مع مركز (أرسيكا)، وننتظر بأمل كبير اليوم القريب الذي نحتفل فيه بافتتاح مبنى مركز الأرشيف المذكور قبل مئة وسبع سنين!

---

(١) لقد شاءت الأقدار أن يكون السير مارك سايكسَ حاضراً مؤتمر السلام في باريس ممثلاً لحكومته، وقد توفي في فندقه في باريس بمرض الحمى التي اجتاحت أوربا عام ١٩١٩م، وتوفي جراءها ٢٥ مليون أوربي، وكان قد أوصى باحتلال أمريكا للعراق في وثيقة قبل موته مؤرخة في ١٩١٨م، أمكن الحصول عليها ونشرناها في مجلة الثوابت، العدد (٣٢)، الصادر في العام ٢٠٠٣م.

(٢) اليمن في العهد العُثماني، ص ٢٩٣.

والمثل الثاني: من الوثائق المنشورة بعنوان (حماية سواحل ولاية اليمن)[١]، فقد صادف قبل أقل من عام، ومع تزايد عمليات سطو قراصنة الصومال على الملاحة في المحيط وخليج عدن، أن كان (مجلس الشورى اليمني) - وأنا عضو فيه - يُناقش هذا الأمر الخطير، ويدعو الحكومة إلى المزيد من رفع تأهيل سلاح البحرية، ومراقبة المياه الإقليمية ونحو ذلك.

وكان الكتاب معي يومها، فأطلعت المجلس الموقر على نص تلك الوثيقة المؤرخة ٩/ ١١/ ١٩٠٢م، والتي تحمل توجيهات الإرادة السلطانية: "حول عمل الترتيبات اللازمة لحماية السواحل اليمنية والمحافظة عليها من عمليات القرصنة، وتجهيز عدد من المراكب والسفن العسكرية لإرسالها إلى البحر الأحمر، ومنها المراكب "نعمت وعسير" وذلك خلال خمسة عشر يوماً، وإرسال السفن من البصرة خلال عشرين يوماً".

* * *

تنظيم الأتراك ولاية اليمن

وهكذا قامت الإدارة العثمانية من بداية استيلائها على صنعاء بجملة من الإجراءات والتنظيمات؛ كما قامت بإدخال بعض الآلات والأجهزة، وأنشأت بعض المشاريع الضرورية لحاجتها، كشق الطُّرق وبناء القلاع (القَشْلات) والمباني الرسمية، واستحدثت أموراً أخرى لا عهد للبلاد بها من قبل؛ كنظام (المحاسبة) المالي والإداري والضبطية المحلية ونحو ذلك.

---

(١) نفسه، ص ٣٤١.

مجلس إدارة ولاية اليمن

بناءً على قانون (فرمان) إنشاء مجالس إدارية للولايات العثمانية الصادر في عام ١٨٦٤م، فقد عمد الولاة المتتابعون على ولاية اليمن ابتداءً من عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م، إلى إنشاء مجلس للولاية برئاسة الوالي، ومركزه صنعاء.

وكان يتم تشكيل المجلس بانتخاب أربعة من العلماء من أعيان البلد، وآخرين يتم تعيينُهم بحكم وظائفهم، وهم:

- حاكم الحنفية (مذهب الدولة).
- مُفتي صنعاء (وهو مُفتي الأتراك يختاره الوالي من بين كبار العلماء).
- ناظر الأوقاف الخارجية (العامة).
- الدفتردار (وهو أمين سر "سكرتير" الولاية للشؤون المالية).
- المكتوبجي (مسؤول مكتب الوالي).

وكان المجلس ينعقد يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع، في مقره من (سوق الملح). وقد ذكر لنا المؤرخ العلامة الجرافي في حولياته[1] اعتذاره عن أن يخلف والده في عضوية المجلس، فعُين أخوه العلامة عبد الكريم بن محمد أحمد الجرافي، كما انتخب العلماء شيخ الإسلام القاضي حسين بن علي العمري - جد الكاتب - عضواً للمجلس.

* * *

(١) انظر: حوليات العلاّمة الجرافي (١٣٠٧ - ١٣١٦ هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٠٠ م)، تحقيق ودراسة (الكاتب) الأستاذ الدكتور حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر، دمشق - بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٣٢، ١٨١، ١٨٢.

ربط المراكز بالطرقات وخطوط البرق (السلك)

كانت الإدارة العثمانية، في مركز الولاية في صنعاء، في حاجة دائمة إلى نقل المدافع والآلات والقوات العسكرية من الموانئ في ساحل تهامة وعسير، إلى العاصمة ومراكز الحاميات العسكرية في المدن الأخرى، فقامت بشق بعض الطرقات في مناطق بالغة الوعورة، وكانت تتعرض للخطر والهجوم، ولربط مركز الولاية بمختلف المدن، وإصدار تعليماتها الإدارية والعسكرية، أحدثت خطوط السلك (البرق) للمرة الأولى عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م، والتي كانت بدورها عُرضة للقطع من قبل القبائل والمقاومة لعزل المركز عن الفروع.

وجلبت الإدارة عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، مطبعة عربية وتركية (عُثمانية) صدر عنها أول صحيفة تصدر في اليمن هي (صنعاء)، التي كانت تحمل أخبار السلطان والباب العالي، وما كان يصدر عنهما من قوانين ومراسيم (فرمانات) وغيرها من تعميمات وأخبار رسمية[١]. وإذ جرى تقسيم الولاية إلى أربعة أقسام إدارية (متصرفية) أو (لواء) هي: صنعاء - عسير - الحديدة - تعز، يتبع كلاً منها عدد من الأقضية والنواحي (المديريات) على رأسها جميعاً الوالي في العاصمة صنعاء، وضعت كذلك أول خريطة (لولاية اليمن) التي حدها غرباً البحر الأحمر، وشمالاً (ولاية الحجاز) وشمال شرق (قضاء نجد) الذي كان يتبع ولاية البصرة، في الجنوب

(١) د.عبد الله يحيى، راجع الزين: اليمن ووسائله الإسلامية، ط١، ١٩٨٥م، ص ٢٥ - ٣٥، يؤكد أن نشرة باسم (يمن) كانت تصدر بالتركية، قبل صحيفة (صنعاء) وذلك من ١٢٨٩ هـ/ ١٨٧٢م؛ أي من بداية حكم العثمانيين الأتراك لليمن، وربما كان ذلك على أوراق صغيرة أحضرت بعدها المطبعة التي صدرت عنها الصحيفة.

(المحميات التسع) التي استمر وضعها مثار نزاع (أنجلو - تركي)، حتى أخذها الإمام يحيى حميد الدين بعد انسحابهم في نهاية الحرب العالمية الأولى، ودخل في حرب ومنازعات مع بريطانيا المحتلة لعدن منذ عام ١٨٣٩م.

لقد صاحبت الثورة دعوات إصلاح الولاية وتحسين أحوالها حتى كانت السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر، التي سجلها لنا العلامة الجرافي في حولياته التي نشرناها عام ١٩٩٢م، وخرجت إلى اليمن أكثر من بعثة تركية (هيئة) للتفتيش؛ فقد كان فساد الإدارة وسوء بعض الولاة الذين بلغ عددهم واحداً وعشرين - كما تقدم - من أسباب التخلف وكثرة الاضطرابات، ومع ذلك اضطر الأتراك إلى الاستجابة لدعوات الإصلاح[١]، ولحاجتهم الإدارية والعسكرية فقد تم إنشاء بعض المدارس والمعاهد المتوسطة في المدن[٢]، خُصص بعض منها لتخريج الكثير من (إداريين ومحاسبين) ومراحل تأهيلية (عسكرية)، وصناعية في العاصمة. وقد أرسل عدد قليل من اليمنيين المتفوقين إلى المعاهد

(١) انظر كتابنا: اليمن والمنار (العشر السنوات الأولى: ١٣١٥ - ١٣٢٥ هـ/ ١٨٩٨ - ١٩٠٧م)، ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) نال تلميذي الباحث الجاد محمد عقلان الحمادي في الماضي القريب ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٨ م رسالة الماجستير بإشرافي بعنوان (الحياة العلمية في اليمن في العهد العثماني الثاني ١٢٦٦ - ١٣٣٦ هـ/ ١٨٤٩ - ١٩١٨ م)، وهي تشرح بتفصيل موثق هذا الموضوع.
أما صديقنا الباحث الدكتور فؤاد عبد الوهاب الشامي الذي نال الدكتوراه بإشرافي بامتياز عن (العلاقات اليمنية التُّركية الحديثة)، في ربيع هذا العام، وقام كذلك بعرض كتاب (اليمن في العهد العثماني)، الذي ذكرناه، فقد ساهم أصلاً في الترجمة إلى العربية بملخصات مع زملائه من المركز الوطني للوثائق ومراجعة الدكتور القدير صالح سعداوي من مركز (أرسيكا)، وقد تم نشر هذا العرض في مجلة الثوابت، العدد (٥٧)، الصادر في منتصف عام ٢٠٠٩م.

والمدارس السلطانية، لإكمال دراستهم في ميادين فنية وعسكرية. ولم يكن يذهب إلى تركية في العادة إلا المنفيون المعارضون للوجود العثماني، أو المطالبون بالإصلاحات، وبضعة عشر شخصاً من ممثلي الولاية في مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني)، كان يجري استبدالهم من كل لواء كل عامين، باستثناء بعض الحالات النادرة.

* * *

اسمحوا لي في الأخير أن أقول: إننا اليوم في اليمن والمشرق العربي عموماً مع تركيا العظيمة، قد وضعنا قطار البحث العلمي والتاريخي على سكة قطار الشرق الحقيقي؛ لنربط الماضي بالمستقبل المأمول، بعد أن تأخر وصول ذلك القطار القديم!

وثيقة (موقف الإمام يحيى بن محمد حميد الدين من وعد بلفور وهجرة اليهود إلى فلسطين)

(١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م - ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)

(وثيقة مهداة للأستاذ المؤرخ والمحقق الجليل الأخ والصديق الدكتور سيد مصطفى سالم، صاحب السبق في إعادة كتابة تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، والمدرسة الأولى في تخريج مؤرخينا الشباب)

في دراسة حديثة عن علاقة الإمام يحيى حميد الدين بالولايات المتحدة الأمريكية، وتأخر اعترافها بمملكته حتى نهاية عام ١٩٤٧م، تُشير وثائق الكونجرس[١] أن الضغط الصهيوني (اليهودي)، على مرشحي رئاسة الجمهورية كان يمنع الاعتراف بالحكومة اليمنية المستقلة منذ عام ١٩١٨م، حتى بعد الحرب العالمية الثانية بسبب منعها الهجرة اليهودية إلى فلسطين وحتى مجيء الرئيس هاري ترومان Truman (١٨٨٤ - ١٩٧٢ م) وصداقاته اليهودية، ومع ذلك فقد تم أخيراً إقامة العلاقات الدبلوماسية والاعتراف باليمن، وقبولها في عضوية الأمم المتحدة في المباحثات

(١) الجبارات (د. محمود محمد): العلاقات اليمنية الأمريكية في عهد الإمام يحيى حميد الدين، (١٣٢٢ - ١٣٦٧ هـ/ ١٩٠٤ - ١٩٤٨ م) عمان ١٩٠٨م، ص ٢٣٠ و ٢٤٣ وما بعدها، والكتاب أطروحة دكتوراه حصل عليها الجبارات من جامعة اليرموك، وألحق المؤلف بين مصادره أكثر من ١٢٤ وثيقة من الأرشيف الوطني الأمريكي.

الرسمية معه ومع وزير خارجيته الجنرال مارشال، خلال الزيارة الرسمية التي قام بها ممثل السياسة الخارجية سيف الإسلام عبد الله ابن الإمام يحيى، على رأس وفد رفيع المستوى[١] بين ١٤ - ١٧تموز/ يوليو ١٩٤٧م[٢].

وفي الواقع أن سببين آخرين للولايات المتحدة كانا وراء التردُّد أو التأخير في الاعتراف باليمن وإقامة علاقات دبلوماسية، والتي تمت في (٢٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٧م)، وأن تصبح اليمن الدولة العضو ٥٦ في الأمم المتحدة.

الأول: علاقتها الحميمة مع الشريك الأهم في الحرب العالمية الثانية (بريطانيا العظمى)، والتي كانت تحتل عدن والجزء الجنوبي من اليمن وكانت في نزاع وحروب معها. أما الثاني: فهو علاقات المصالح المهمة وتدفق الذهب الأسود، والصداقة المتنامية مع الجار الشمالي لليمن، خاصة بعد ذلك اللقاء التاريخي الذي تم في عرض البحر بين الرئيس روزفلت والعاهل المؤسس للمملكة العربية السعودية قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية.

لقد كان الموقف اليمني الرسمي المعلن هو معارضة «الهجرة اليهودية إلى فلسطين باعتبار ذلك اغتصاباً لحق الفلسطينيين أهل البلاد..»، وفي افتتاحية لجريدة الإيمان الرسمية شنت حملة قوية على بريطانيا في تجميعها اليهود: «من أمريكا وإفريقية، ومن كل زوايا الأرض وحشرتهم

(١) كان من أبرز أعضائه السياسي العالم القاضي محمد بن عبد الله العمري، وكيل وزارة الخارجية (شقيق المؤلف) والسيد الدبلوماسي حسن بن إبراهيم وآخرون.

(٢) الجبارات: ٢٨٢ - ٢٩٣، وانظر نص الرسالة التي حملها السيف عبد الله من والده الإمام والموجهة إلى وزير الخارجية الجنرال مارشال، ص١٠٢ - ١٠٣.

إلى فلسطين، وتحسب أن هؤلاء الحشرات الأشرار من أهل فلسطين الأصليين... وإعطاء اليهود حق الحاكمية أو حق التصرف في فلسطين معناه أساساً سلب أملاك المسلمين وأراضيهم وعقاراتهم وحياتهم، بل إمحائهم من الوجود»[١].

وفي الوثيقة النادرة التي ننشرها هنا للمرة الأولى، توضيح وفهم صحيح لخطر تصريح (وعد) جيمس بلفور وزير خارجية إنجلترا عام ١٩١٧م، بمنح اليهود وطناً قومياً في فلسطين. والوثيقة هي أمر كتابي من الإمام يحيى إلى محافظ (ناظرة) بلاد صعدة (الشام) العلامة محمد بن حسن الوادعي (ت ١٩٥٠م)، يشرح له خطر ذلك التصريح ويأمره بمنع هجرة اليهود الباقين في صعدة، واعتبار من غادر منهم في حكم المحاربين، وبأنه سبق أن أمر بعدم مغادرتهم إلى فلسطين حتى لا يُشكل اليهود أكثرية على العرب.

وفي الحقيقة إن هذه الوثيقة تدل على معرفة الإمام يحيى بما كان يدور خارجياً عربياً ودولياً، وعلى موقفه القومي والإسلامي من القضية الفلسطينية، وغيرها من القضايا العربية التي شارك في التواصل أو التوقيع على معاهداتها؛ كمعاهدة الأخوة مع العراق والسعودية (١٩٣٧م)، أو الانضمام إلى الجامعة العربية عام ١٩٤٥م، رغم حذره الشديد والعزلة التي ضربها على اليمن، ووقوعه بين كماشة دخل حربها في الشمال عام ١٩٣٤م واستمر طويلاً في الحرب والمناوشة في الجنوب، رغم توقيعه مع الإنجليز معاهدة صنعاء عام ١٩٣٤م، ولعل ذلك ما يفسر اتفاقه المبكر مع إيطاليا (١٩٢٦م) والاتحاد السوفييتي (١٩٢٨م)، وهاجس الخوف من أي جديد.

---

(١) الإيمان، العدد (١٣١)، جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ هـ، وانظر: الدكتور الجبارات، ص ٢٤٦.

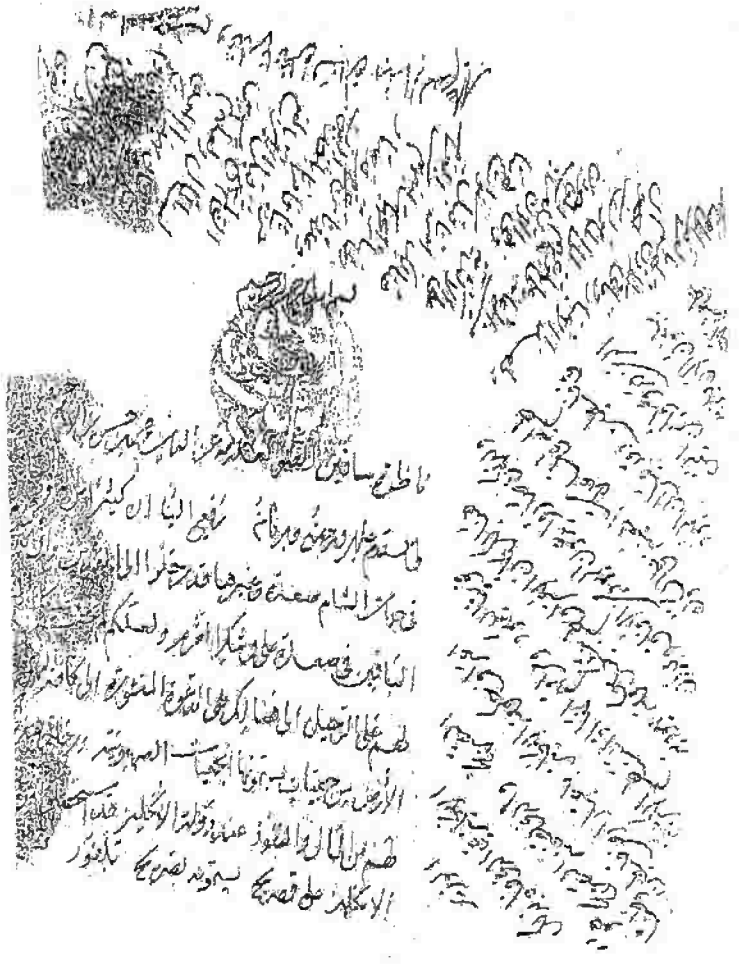

وثيقة للإمام يحيى حميد الدين حول موقفه من هجرة يهود اليمن إلى فلسطين

نص الوثيقة الأصل
[البسملة بخط الإمام يحيى]
والوثيقة بخط القاضي عبد الكريم بن أحمد مطهر
الكاتب الأول ورئيس صحيفة الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الختم الرسمي للإمام يحيى

ناظرة ساقين[1] الصنو العلامة عز الدين محمد بن حسن بن الإمام حفظكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) ناظرة: المحافظ أو أمير اللواء، و (ساقين) من بلاد صعدة، وكان العلامة الحجَّة محمد بن حسن بن عبد الله الوادعي المولود بمدينة (وادعة حاشد) سنة ١٢٢٩ هـ/ ١٨٧٣ م، من كبار العلماء والقادة المعتمدين في حكم الإمام يحيى حميد الدين، وهو من أحفاد الإمام المؤيد محمد بن القاسم (ت ١٠٥٤ هـ/ ١٦٤٤ م)، ثاني إمام من بيت القاسم بعد أبيه، وقد ولاّه الإمام يحيى حميد الدين بلاد صعدة، ومنها ساقين (مركز ناحية خولان)، ومنح لقب (ناظرة)، فكان الوحيد ممن حمل هذا اللقب تقديراً وتمييزاً له عن بقية عمال (النواب) على الألوية (المحافظات) الأخرى كالحديدة وتعز وغيرهما.
وقد قام بدور أدبي وعلمي وإداري وعمراني وسياسي معروف، ومن ذلك رئاسته عام ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٤ م لوفد المحادثات اليمني مع الجانب السعودي في الظهران، لبحث قضايا الحدود عقب الحرب المؤسفة بين البلدين الشقيقين، وفي مطلع عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م استدعاه الإمام يحيى إلى صنعاء ليتولى رئاسة المحكمة العليا للاستئناف، وفي طريقه بلغه مقتل الإمام يحيى (١٧ شباط - فبراير ١٩٤٨م/ ١٣٦٧ هـ)، وبعد استقرار حكم ولي العهد السيف أحمد خلفاً لأبيه أصدر قرار تعيينه في المنصب القضائي الرفيع هذا «فقام به أحسن قيام، =

رُفع إلينا أن كثيراً من اليهود في جهات الشام - صعدة وغيرها - قد رحلوا إلى القدس، وأن كثيراً من الباقين في صعدة على وشك العزم، ولعلكم لم تأذنوا لهم على الرحيل إلى هنالك لتلبي الدعوة المنشورة إلى كافة يهود الأرض من جمعيات يسمونها الجمعيات الصهيونية ومن شخصيات يهودية لهم من المال والنفوذ عند دولة الإنكليز قد استحصلوا من الإنكليز على تصريح يسمونه (بتصريح بلفور) الوزير الإنكليزي الذي فاه بذلك التصريح، والذي تضمنه التصريح هو: اعتراف حكومة الإنكليز، باعتبار أرض فلسطين وطناً قومياً لليهود. ومرامهم أنها إذا تمَّت لهم الأكثرية هنالك، كان الاعتراف لهم بتشكيل حكومة يهودية، ولذلك صاروا يَدْعون اليهود من الآفاق، ويمدُّون لهم أيدي المساعدات المُعِينة على السكون في فلسطين، وقد قيل إن اليهود الذين وصلوا من اليمن يبلغون الآن ما يزيد على عشرة آلاف.

ولهذا الاعتبار، وما في الإذن لهم بالعَزْم إلى هنالك من الإعانة على بلوغهم إلى المأمول من الحصول على الأكثرية، وهي الآن للعرب الموجودين هنالك.

أمَرْنا قبل سنوات لكم منَّا، وفي سائر الجهات بمنعهم من العزم.

= وقد جمع بين العلم والرئاسة وحسن الخُلُق، وكانت له عظمة في الصدور وحب عند الجمهور .. وتوفي في ذي القعدة سنة ١٣٦٩ هـ [١٩٥٠م] عن سبع وسبعين سنة، وكان لموته أعظم الأثر وقُبر بخزيمة بجوار شيخه المولى الحسين بن علي العمري».

زبارة: (محمد بن محمد)، نزهة النظر، ط ١٩٧٩م، نشر مركز الدراسات: ٥٦٠، الأكوع: (القاضي إسماعيل)، هجر العلم ومعاقله (دار الفكر - دمشق): ٢٣١٨/٤.

العلاقة اليمنية الأمريكية

في وثيقة رسمية وأطروحة دكتوراه

أمّا **الوثيقة** فهي رسالة من الإمام يحيى حميد الدين (١٩٠٤ - ١٩٤٨م)، مؤرخة في ٢٢ رجب ١٣٦٦ هـ/ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٧م، موجهة إلى وزير خارجية الولايات المتحدة الجنرال جورج مارشال (١٨٨٠ - ١٩٥٩م)، الشهير بمشروعه (Marshall Plan) لدعم أوربة في التنمية؛ خوف الوقوع في اتجاه المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفييتي بعد الحرب العالمية الثانية «وإعادة الحياة الصحية للاقتصاد العالمي ليتحقق الاستقرار السياسي والسلام الدائم»، كما جاء في خطابه المهم في جامعة هارفارد (Harfard) يوم ٥ حزيران/ يونيو ١٩٤٧م، وتم تأسيس منظمة أمريكية أوربية خاصة بالمشروع في شهر نيسان/ أبريل ١٩٤٨م.

وقد حمل الرسالة وزير خارجية اليمن سيف الإسلام عبد الله بن يحيى الابن الرابع للإمام (أعدم عقب إخفاق انقلاب كان على رأسه، في نيسان/ أبريل ١٩٥٥م)، الذي رأس وفداً كان في عضويته القاضي محمد ابن عبد الله العمري وكيل وزارة الخارجية (ت ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م)، والسيد حسن بن علي إبراهيم (ت ١٩٦٢ م) والمستشار الدكتور حسن بغدادي عميد كُلية الحقوق بجامعة القاهرة وآخرون، أجرى فيها محادثات

مطولة مع الوزير ومع الرئيس الأمريكي ترومان (١٨٨٤ - ١٩٧٢ م)[١] والمعنيين الآخرين.

وكان من نتائجها الاعتراف بدولة اليمن، وإقامة علاقة دبلوماسية وتجارية بين البلدين، فالعلاقة اليمنية الأمريكية قبل هذا التاريخ لم تكُن قد أسست على اعتراف دبلوماسي، أو على اتفاقات ثنائية، بغض النظر عن اتصالات أو زيارات أمريكية لليمن[٢] قبل هذا التاريخ؛ ذلك أن الولايات المتحدة كانت رهن علاقاتها الخاصة بكل من حليفتها في الحرب العالمية الحكومة البريطانية المحتلة لعدن و(جنوب اليمن) من ناحية، ومصالحها الكبيرة في المملكة العربية السعودية شمالاً، وسبب آخر هام هو الهيمنة الصهيونية (اليهودية) المؤثرة فعلاً في الانتخابات الرئاسية.

والموقف الأمريكي الداعم لقيام دولة إسرائيل، ومن ذلك كانت قضية يهود اليمن[٣] الذين تجمعوا في عدن في أواخر عام ١٩٤٣ م، ومن ثم تمَّ نقلهم جواً عبر ما عُرف "بالبساط السحري" (Majec Karpet) من عدن إلى مطار اللد خلال شهري أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٩م، (بمعدل ٣٠٠ - ٥٠٠) شخص في اليوم على طائرات بريطانية

(١) كان نائباً للرئيس روزفلت (١٩٤٤ م)، رئيساً للجمهورية: ١٩٤٥ - ١٩٥٣ م، وكان وراء إعداد مشروع مارشال (Marshall Plan) لمساعدة أوربة بعد الحرب، كما سبق في أول هذا البحث.

(٢) انظر: اليمن والغرب، تعريب الكاتب، ط ٢، ص ٩١، ١٧٢، ٢٠٢، وما بعدها؛ المنار واليمن، للكاتب، دار الفكر، ١٩٨٧ م، ص ١٠٩ - ١٢٧، بخصوص بعثة السفير تشارلس كراين ممثل وصديق الرئيس الأمريكي ولسن وزيارته للحجاز واليمن عام (١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٦ م).

(٣) ورد موقف الإمام يحيى من هجرة يهود اليمن في الوثيقة الخطية السابقة ص٩٥.

وأمريكية، استأجرتها اللجنة الأمريكية المشتركة للتوزيع مع الوكالة اليهودية[١].

أمّا أطروحة الدكتوراه فهي أحدث دراسة عن «العلاقات اليمنية الأمريكية»، في عهد الإمام يحيى حميد الدين (١٩٠٤ - ١٩٤٨م)، نالها الباحث الأردني الدكتور محمود محمد الجبارات من جامعة اليرموك الأردنية (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).

وكانت الوثيقة (الرسالة) قد أهداني إياها الأخ الصديق السفير والدبلوماسي الأستاذ إبراهيم بن محمد الكبسي (وكيل وزارة الخارجية الأسبق)، حين قدومه من واشنطن في رمضان من العام (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م) وفكرت وقتها في نشرها ضمن مواد هذه «اليمانيات» (كما جرت العادة في نشر وثيقة أو أكثر فيما سبق من يمانيات)، وذلك قبل أن يزورنا مؤخراً الأخ الباحث الدكتور الجبارات ويُهديني مشكوراً دراسته المهمة والنفيسة، والتي كان من مصادرها العديد من وثائق الأرشيف الوطني الأمريكي التي تجاوز عددها ١٢٤، وكان من بينها نفس نص رسالة الإمام يحيى (الوثيقة رقم ١١١) (ص: ٣٢٦)، ونَشَر نصها في الملحق (٣) صفحة (٣٦٠) من كتابه.

وها هي ذي الرسالة نصاً وصورة لأصلها[٢] فيما يلي:

---

(١) انظر: اليمن والغرب، تعريب الكاتب، دار الفكر، ط ٢، ٢٠٠٩ م، ص ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٤، وراجع: الجبارات: العلاقات اليمنية الأمريكية، ص ٢٤٣ - ٢٤٧.

(٢) الأصل في مكتبة الكونجرس J.0011/6-1247 890 .

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

حضرة صاحب المعالي وزير خارجية الولايات المتحدة العظمى الجنرال مارشال المفخم. وبعد التحية الطيبة وأصدق العواطف لمعاليكم فننتهز الفرصة بمناسبة زيارة حضرة ولدنا صاحب السموّ الملكي الأمير سيف الإسلام عبد الله لبلادكم المحبوبة تلبيةً للدّعوة الكريمة، فنُعرب بلسانه عن احترامنا الودّي الخالص، وشعورنا الكريم الطيب نحو حضرة معاليكم، واثقين بأنه سينال من نبيل عواطفكم حسن التلقي وتيسير المراجعة في كل الأمور المتعلقة ببعض مَطلوبات حكومتنا، وتسهيل مُباحثاته مع من يلزم من المؤسسات التجارية ونحوها فيما فيه مصلحة البلدين وتقوية أواصر الصداقة، فقد وَصَّيناه بالجدّ في ذلك، وأن يعرض نتائج مباحثاته علينا لتدبير اللازم لإجراء مقتضياتها من قبل حكومتنا. وتفضلوا بقبول أخلص وأصدق التقدير والاحترام.

في ٢٢ شهر رجب سنة ١٣٦٦هـ [كانون الثاني/ يناير ١٩٤٧م]

DOJ.0011/6-1247
CS/A

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المعالي وزير خارجية الولايات المتحدة العظمى الجنرال مارشال المفخم . وبعد التحية الطيبة وأصدق العواطف لمعاليكم فنغتنم الفرصة بمناسبة زيارة حضرة ولدنا صاحب السمو الملكي الامير سيف الاسلام عبدالله لبلادكم المحبوبة نلبية للدعوة الكريمة . فنعرب بلسانه عن احترامنا الودي الخالص وشعورنا الكريم الطيب نحو حضرة معاليكم واثقين بانه سينال من نبيل عواطفكم حسن التلقي وتيسير المراجعة في كل الامور المتعلقة ببعض مطلوبات حكومتنا وتسهيل مباحثاته مع من يلزم من المؤسسات التجارية ونحوها فيما فيه مصلحة البلدين وتقوية اواصر الصداقة فقد وصيناه بالجد في ذلك وان يعرض نتائج مباحثاته علينا لتدبير اللازم لاجراء مقتضياتها من قبل حكومتنا . وتفضلوا بقبول اخلص واصدق التقدير والاحترام في ٢٢ شهر رجب ١٣٦٦

رسالة الإمام يحيى إلى الجنرال مارشال وزير الخارجية الأمريكي

الهَمْداني لسان اليمن

دراسات في ذكراه الألفية[١]

في عام ١٩٨١م، أشرفت لجنة الهَمْداني على انعقاد الندوة العلمية العالمية، بمناسبة الذكرى الألفية للسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهَمْداني، شارك فيها كثيرون من المهتمين والمتخصصين والمستشرقين المرموقين، وفي عام ١٩٨٦م صدرت الأبحاث التي ألقيت في تلك الندوة في كتاب بالعنوان المذكور، وفيما يلي عرض لهذا الكتاب.

«أخيراً، أصدرت (جامعة صنعاء) للعُلماء والباحثين والمهتمين بفكر علامة العرب الكبير وتراثه، في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد الحسن بن أحمد الهَمْداني، كتاباً مهماً عكف على تحريره ومراجعة طباعة فصوله المختلفة باللُّغتين العربية والإنجليزية الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبد الله أمين عام (لجنة الهَمْداني)، التي أعدت للندوة العلمية العالمية بمناسبة الذكرى الألفية (للسان اليمن)، التي عُقدت في جامعة صنعاء في (٢١ - ٢٧ ذي الحجة عام ١٤٠١هـ/ ١٩ - ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨١م)، وحضرها وشارك في محاوراتها عدد كبير من العُلماء

(١) مجلة العربي، العدد (٣٥٢)، الصادرة في آذار/ مارس ١٩٨٨م، ونُعيد نشره هنا بتصرف مع بعض الإضافات القليلة المناسبة لهذه الاحتفالية الكبيرة، في مناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس جامعة الصنعاء: (العمري) عضو اللجنة التحضيرية برئاسة الأخ الأستاذ الدكتور خالد عبد الله طميم رئيس اللجنة.

والمتخصصين العرب والمستشرقين المرموقين، ولاقت نجاحاً كبيراً لتوافر جهود كل المتخصصين في جامعة صنعاء وأعضاء اللجنة التي أولتها الدولة أيضاً اهتماماً خاصاً، فكان رئيسها الفخري نائب رئيس الجمهورية آنذاك الأستاذ عبد العزيز عبد الغني، ثم لتجمع ذلك العدد من الباحثين، الذين كثيراً ما تاقوا إلى اللقاء في ندوة أو مؤتمر خاص بعَلَم شامخ كالهَمْداني، الذي لم يلق قبل تلك الندوة ما يستحق لعلمه بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها، وبخاصة آثارها القديمة، وهو أمر نادر بين العرب، ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أنه استطاع فك رموز الكتابة (الحميرية) القديمة في جنوب الجزيرة، ويقف مصنف الإكليل الذي يقع في عشرة أجزاء دليلاً ساطعاً على سعة معارفه، فقد أفرغ فيه جماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار، بل حتى لأدب الحميريين سُكّان الجزيرة في القدم. ولم يكتفِ في كتابه بعرض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي بعد الإسلام، بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد، وذلك على ضوء دراسته للنقوش التاريخية».

ذلك هو لسان اليمن، في ذكراه الألفية بعد مرور ١١٢٥ عاماً من مولده أو ١٠٧١ عاماً - تقريباً - من تاريخ وفاته غير المؤكد، نُضيف إليها نحو ثلاثين عاماً هي الفارق بين ذلك المؤتمر في ذكراه الألفية، وهذا المؤتمر الثاني بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس جامعة صنعاء الحفية اليوم بذكراه العظيمة، عازمة على إعادة نشر ما سبق وما سيُقدم في هذا المؤتمر في أقرب فُرصة بإذن الله.

نظرات في البدر الطالع
للإمام الشوكاني

ورجال القرنين الثامن والتاسع الهجريين[١]

عندما تلقيت من جامعة الملك سعود (كلية الآداب) شاكراً، دعوة رئيس اللجنة التحضيرية للمشاركة في الندوة العالمية السابعة لدراسة الجزيرة العربية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، المنعقدة في الرياض (٥ - ٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٠م)، لم أتردد كثيراً في قبولها؛ فقد خطر على بالي، ومنذُ فترة ترجع إلى عام ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م، حين أصدرت يومها تحقيقي لمؤلف شيخ الإسلام العلامة محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٤ م) النفيس (البدر الطالع بمحاسن من بَعد القرن السابع)[٢]، بأن أكتب عن أهميته بين كُتب التراجم الكثيرة والغنية، وقد وجدت هذه الندوة المعنية بذينك القرنين فرصة لمثل هذا العَرض، مع أن تراجم "البدر الطالع" تجاوزت زمنياً القرنين الثامن والتاسع، إلى رجال عصر المؤلف في منتصف القرن الثالث عشر، بيد أننا سنعنى بالحديث عن أمثلة من تراجم القرنين على وجه الخصوص، بعد إلقاء نظرة على منهج الشوكاني ومصادره التي اعتمد عليها في بدره الطالع، وقُبيل ذلك أحب أن أذكِّر بأمرين:

---

(١) من أوراق الندوة العالمية السابعة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، ٥ - ٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٠م.

(٢) دار الفكر، دمشق - دار الفكر المعاصر، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م.

الأول: بأن كُتب التراجم منجم عميق ثري تميزت به الثقافة العربية الإسلامية عن غيرها من الثقافات العالمية الكبرى، فكان لدينا العشرات بل المئات من كتب التراجم، من وقت مبكر في صدر الإسلام، ولأغراض وحاجات علمية وتاريخية كثيرة، وهي نوعان:

كُتب الطبقات التي تبحث في تراجم الشخصيات أو الأشخاص مصنفة في طبقات (فئات منهم) تعاصرت في الزمن. ولعل كتاب تلميذ المؤرخ الواقدي، محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م) (طبقات الصحابة) أول المدونات وأشهرها في هذا الفن. وقد طور المؤرخون العرب بُعيد ذلك من طبقات الصحابة وعلماء الحديث ورواته (وكُتب الجرح والتعديل)، إلى طبقات غيرهم من الشعراء والأدباء، والفقهاء والحفاظ والنحاة والأطباء.

وتأتي كُتب التراجم في سير الأفراد من صحابة وخلفاء وأمراء ووزراء، وعلماء ومحدثين وغيرهم، وهي تُشبه كُتب الطبقات، إلا أنها تختص بفئة معينة، ولا تلتزم في ترتيب تراجمها الأسس المتَّبعة في كتب الطبقات، ومن ثم فهي في الغالب تعتمد في تصنيف أعلامها على الترتيب الألف - بائي للأسماء. وقد يُطلق عليها (مُعْجم) (كمعجم الأدباء) أو (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، أو معجم الشعراء أو نحوها.

وقد تكون لمعظم الشخصيات العربية أو الإسلامية ذات الشأن في جميع الأقطار العربية والإسلامية، أو في قُطر واحد، أو حتى مدينة واحدة، كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت٤٦٣ هـ/ ١٠٧٢م)، وتاريخ صنعاء للرازي (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (ت٥٧١هـ/ ١١٧٦م)، وما تلاها من كُتب المدن ورجالها، التي بلغت في

عصر ابن خلدون وابن حجر والذهبي والسخاوي ومعاصره الجلال السيوطي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥ م)، شأناً عظيماً[١].

منهج الإمام الشوكاني

لم يكن العلاّمة الأصولي المفسر، الأديب والشاعر والمجتهد الكبير، الإمام الشوكاني مؤرخاً، بالمعنى الاصطلاحي، بيد أن سعة اطلاعه على كتب التاريخ وأدب التراجم[٢] في عصور ازدهارها، جعله ينزعج من ظهور تيار أدبي في اليمن اعتمد على الزخرف اللفظي ووجد له أنصاراً، وربما كان انعكاساً لانتشاره الواسع في المشرق العربي فيما عُرف بعصر الانحطاط. وهو يوجه النقد إلى أولئك الذين كانت تلك سبيلهم في التأليف في مقدمته للبدر الطالع[٣]، قائلاً:

«.. وقد استكثر المتأخرون من المشتغلين بأخبار الناس، المؤلفين فيها، من جمع الألفاظ والتأنق في تنقيحها وتهذيبها، مع إهمال بيان الأحوال والمولد والوفاة، فكل ذلك لا يُعدُّ من علم التاريخ، فإن مطمحَ مؤلِّفه، وقصارى مقصوده مراعاة الألفاظ وإبراز النكات البديعة، وهذا عِلم آخر غيرُ علم التاريخ، إنما يرغب إليه من أراد أن يتدرب في البلاغة، ويتخرج في فنّ الإنشاء»[٤].

ذلك كان فهم الشوكاني للتاريخ عِلماً وفناً، وهو فهم عالٍ ومتقدِّم قلَّ

(١) الموسوعة العربية، ٥/ ٨٣٨، وانظر في الموضوع: مقدمة ابن خلدون، بتحقيق د. إبراهيم شبوح وإحسان عباس، تونس/ ٢٠٠٦ م، وكتابي روز نفال.

(٢) انظر كتاب مروياته الهام: إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر.

(٣) البدر الطالع، بتحقيق الكاتب، دار الفكر، دمشق - دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٨ م، ص ٢٣.

(٤) مقدمة البدر الطالع.

أن نجدَ له نظيراً بين معاصريه من المؤرخين العرب، مع أنه لم يترك لنا في الكتابة التاريخية سوى كتابه هذا: (البدر الطالع) في تراجم رجال من بعد القرن السابع الهجري / الرابع عشر للميلاد، وأورد فيه الوفيات إلى عصره، وأراد به وهو العالم والمجتهد؛ بل والمفكر، نقضَ تلك المقولة التي يذهب القائلون بها إلى إغلاق باب الاجتهاد، وزعموا عدم إمكانية وجود مبرِّزين ومجتهدين من أبناء الأمة في العصور المتأخرة، وهي دعوة إلى تثبيط الهمم والقنوع بما قد حصل في القرون الأولى؛ إذ ليس في الإمكان أبدعُ مما كان! أو بتعبير الإمام الشَّوكاني:

«.. وكانت هذه المقالةُ بمكانٍ من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظ من علم، وأنزرُ نصيب من عرفان، وأحقر حصة من فهم، لأنها قصرٌ للتفضُّل الإلهي، والفَيض الرباني على بعض العباد دون البعض، وعلى أهل عصر دون عصر، وأبناء دَهر بلا برهان ولا قرآن. على أن هذه المقالة المخذولة، والحكاية المرذولة تستلزم خلو هذه الأعصر المتأخرة عن قائم بحجج الله ومُتَرْجم عن كتابه وسنة رسوله، ومبين لما شرعه لعباده، وذلك هو ضياع الشريعة بلا مِرية، وذهاب الدين بلا شك، وهو، تعالى، قد تكفَّل بحفظ دينه، وليس المراد حفظه في بطون الصحف والدفاتر، بل إيجاد من يبينه للناس في كل وقت وعند كل حاجة».

ولهذا فقد حدا ذلك بالإمام الشوكاني - كما يضيف - :

«إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا، ليعلم صاحب تلك المقالة أن الله - وله المنَّة - قد تفضل على الخَلَف كما تفضَّل على السَّلَف، بل ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة، كما سيقف على ذلك من أمعن النظر في هذا الكتاب، وحلَّ عن عنقه عُرا

التقليد، وقد ضممتُ إلى العلماء من بلغني خبره من العبَّاد، والخلفاء، والملوك والرؤساء، والأدباء؛ ولم أذكر منهم إلا من له جلالةُ قدرٍ، ونبالةُ ذكر، وفخامة شأن، دون من لم يكن كذلك..»[١].

إننا إزاء عالم ومؤرخ من طبقة متميزة، أتاحت له معارفه الواسعة في كل شُعبِ الثقافة العربية الإسلامية التي استوعبها، وألف فيها جميعاً[٢]، أن يكتُبَ، أو يُصنِّف كتابه في التراجم بقدرة المحيط بمعرفة علوم من يترجم لهم وآدابهم. ولمعرفته بل والتزامه بما نطلق عليه (الموضوعية) ويسميها (النُّصفة)، نجد معظم التراجم وبخاصة اليمنية على درجة بالغة من الدقة والصدق والبعد عن الهوى أو التعصب الذي كان يحمل عليه وعلى سلوك أصحابه، يقول هو في هذا الصدد:

«وإني لأعجبُ من رجل يدَّعي الإنصاف والمحبة للعلم، ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم لا يدري به، ولا يعرف موضوعه، ولا غايته ولا فائدته، ولا يتصوره بوجه من الوُجوه، وقد رأينا كثيراً ممن عاصرنا ورأيناه يشتغل بالعلم، وينصف في مسائل الشرع، ويقتدي بالدليل فإذا سمع مسألة في فنّ، وهو لا يدري ما تلك المسألة ولا يعقلُها قط، ولا يفهمُ شيئاً منها، فما أحقّ من كان هكذا بالسكوت والاعتراف بالقصور والوقوف حيث أوقفه الله، والتمسك في الجواب إذا سئل عن ذلك بقوله: لا أدري !».

البدر الطالع:

لقد وجدَ فكر الشوكاني وآراؤه الإصلاحية صدى لها في مصر والشام

(١) مقدمة البدر الطالع، ص ١١ - ١٦.

(٢) انظر كتابنا: الإمام الشوكاني رائد عصره، دار الفكر، دمشق - دار الفكر المعاصر، بيروت.

والهند، في أواخر القرن الماضي، فطبع عدد كبير من كتبه ومنها (البدر الطالع)، وهو كتاب تراجم كما ذكرنا يضم عشراً وست مئة ترجمة لأعلام من الأمصار العربية والإسلامية، واستوعب فيه الوفيات من مطلع سنة ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م، حتى أواخر عصره (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) مرتبة جميعها على حروف المعجم؛ ولا شك في أن التراجم اليمنية أكثر أهمية، وبخاصة تراجم معاصريه وشيوخه وأصدقائه وتلاميذه، وغيرهم من حكام وسياسيين وعلماء وأدباء، فكانت زاخرةً بالمعلومات والماجريات المعاينة والنظرات الانتقادية الموضوعية. ومما زادها عمقاً وفائدة مشاركةُ المؤلف الفاعلة في حياة العصر السياسية والعلمية والأدبية، وبخاصة بعد أن اضطر مكرهاً إلى أن يضطلع بمسؤولية القضاء الأكبر عام ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م، حين كان في السادسة والثلاثين من عمره، واستمر في منصبه حتى وفاته، فكان مرجعَ كل الناس الذين انثالوا عليه من كل أنحاء البلاد؛ يقول:

«.. فاستغرقت في ذلك جميعَ الأوقات، إلا لحظات يسيرةً قد أفرغْتُها للنظر في شيء من كتب العلم، أو لشيء من التحصيل، وإتمام ما كنت شرعت فيه، واشتغل الذهن شغلةً كبيرةً، وتكدر الخاطر تكدُّراً زائداً..»[1].

لقد كتب الشوكاني تراجم عصره ببصر الخبير المطَّلع على سير الأحداث، باسطاً علاقاته بالحدث إذا كانت له مشاركة فيه؛ ذاكراً مراسلاته أو محاوراته مع من له به علاقةٌ أو صداقة أو معرفة.

أما شأنه في ترجمة من تقدَّموا على عصره، فقد كان أميناً في نقله واختصاره، مشيراً إلى مصادره في الغالب إلا النادر. وقد ترجم لعدد كبير من المؤرخين من عرب ويمنيين، منبهاً وناقداً لبعض ما وجده في كتاباتهم

(١) مقدمة البدر الطالع، ص ١٤.

من مبالغة أو تناقض أو تنكُّب عن إنصاف. ففي ترجمته للمؤرّخ الجلال السيوطي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) مثال نضربه على ذلك، ففيها ينبه القارئ إلى أي مدى تحامل عليه معاصره المؤرِّخ السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، في كتابه (الضوء اللامع)، حين ترجمه فيه كما يقول الشوكاني: «ترجمةً مظلمةً، غالبُه ثَلْبٌ فظيع، وسبٌّ شنيع، وانتقاصٌ وغَمْط لمناقبه، تصريحاً وتلويحاً، ولا جَرَم فذلك دأبه في جميع الفضلاء من أقرانه، وقد تنافس وصاحب الترجمة منافسة أوجبَتْ تأليف صاحب الترجمة لرسالة سماها (الكاوي لدماغ السخاوي)، فليعرف المطلع على ترجمة هذا الفاضل في (الضوء اللامع) أنها صدرت في خصم له غير مقبول عليه..».

أما في ترجمته للسخاوي[١] فبعد أن ذكر كل ما في مؤلفاته من علوم ومزايا، ومنها (الضوء اللامع)، الذي يدلُّ على إمامته وسعة أفقه في الاطِّلاع، وإعجابه بإحاطته، بل وفضّل مصنفه على كتاب شيخه ابن حجر (الدرر الكامنة)، يتمنى لو أن السخاوي «صان ذلك الكتاب الفائق عن الوقيعة في أكابر العلماء من أقرانه»، لكن الشوكاني يلتمس له العذر فيضيف: «ولكن ربما كان له مقصدٌ صالح، وقد غلبت عليه محبةُ شيخه الحافظ ابن حَجَر فصار لا يخرجُ عن غالب أقواله»[٢].

لقد كان المؤرِّخون المصريون؛ الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) وتلميذه السخاوي، ثم الجلال السيوطي، ممن اعتمد

(١) البدر الطالع، بتحقيقنا، ص ٣٣٧ - ٣٤٣، وانظر بحثنا عن السيوطي في: الجزء الأول من يمانيات، دار الفكر، ١٩٩٦ م، وقارن أيضاً قول السخاوي في ترجمته للأشموني: ٤٩٢ - ٤٩٣، وتعليق الشوكاني عليه وهي في الضوء اللامع للسخاوي، ٦/ ٥.

(٢) انظر ترجمته في: (البدر الطالع) بتحقيقنا، ص ٧٠١ - ٧٠٤.

الإمام الشوكاني كتبهم مصادر لكتابه من غير اليمنيين، بالإضافة إلى اعتماده على كُتب طبقات مؤرخين آخرين وتواريخهم: كالحافظ الذهبي الدمشقي (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م)[١]، والإسنوي (٧٧٢هـ/ ١٣٢٢م)، والصلاح الصفدي (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م)، وابن رجب (ت ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣م)، وآخرين نقل عنهم وترجم لهم في (البدر الطالع) بالمنهج نفسه.

أما مصادره اليمنية فكثيرة جداً، بعضها لا نعرفه إلا منه، والبعض الآخر مؤرخون منهم (الخزرجي، ابن الدّيبع، ابن أبي الرجال، ابن الوزير، يحيى بن الحسين) ومؤرخون آخرون غيرهم، نقل عنهم وترجم لهم في مواضعهم بنفس الموضوعية والنظرة الانتقادية لأعمالهم، أو لموقف المؤرخين منهم، كإشارته إلى عدم وجود ترجمة يستفيد منها تاريخ مولد المؤرخ الكبير يحيى بن الحسين أو وفاته على وجه الدقة، بل ولا «شيئاً من أحواله، بل أهمل ذكره أهل عصره فمن بعدهم!»، ويعلل سبب ذلك «والله أعلمُ، ميله إلى العمل بما في أمهات الحديث ورده على من خالف النصوص الصحيحة..»[٢]، ثم يذكر أمثلة من كتبه التي اطلع عليها مشيداً بها وبغزارة علم صاحبها.

إن هذه الإشارة إلى ذلك السبب تمثل قضية مهمة تبناها الإمام الشوكاني وأفرد لها رسائل وبحوثاً، ولا يكاد يخلو كتاب من كتبه إلا وهو يذكّر فيه بها ويدعو إليها، تلك هي دعوته إلى نبذ التعصب الأعمى أياً كان، والتقليد أو التمذهب، داعياً إلى الاجتهاد وسماحة الرأي لقبول الحجة والاعتراف بالحق، وقد بث دعوته هذه - كما أسلفنا - في كثير من تراجم أعلام (البدر الطالع) المجتهدين العلماء الداعين إلى ذلك؛

(١) البدر الطالع، ص ٦٢٦.
(٢) مقدمة البدر الطالع.

أمثال الحسن الجلال ومحمد الوزير والمقبلي وابن الأمير[١]، وأضرابهم من العلماء المتحررين في اليمن، وغير اليمن وما لاقوه جراء ذلك من محنٍ وأذى، لكنهم آخر الأمر نجحوا، أو كما قال الشوكاني عن آخرهم ابن الأمير (ت ١١٨٢ هـ/ ١٧٦٨ م)، الذي كان الشوكاني خلفه في هذه المدرسة : «وما زال ناشراً لذلك في الخاصة والعامة، غير مبالٍ بما يتوعده المخالفون له. ووقعت أثناء ذلك فتن كبرى وقاه الله شرَّها..»[٢].

فرغ الإمام المؤرخ الشوكاني من تصنيف (البدر الطالع) في ثاني شهر ذي الحجَّة سنة ١٢١٣ هـ/ ٦ أيار - مايو ١٧٩٩ م، حين كان في الثالثة والأربعين من عمره الذي امتد وهو متمتع بصحته ونشاطه إلى السابعة والسبعين، وقد ذكر أنه جمعه من مصادره في «نحو أربعة أشهر وليال يسيرة، وأكثر الأيام يعرض الشغل فلا يمكن تحرير شيء»[٣].

ويدل قصرُ المدة على مدى قدرة الرجل وسرعة إنجازه لمثل هذا العمل، وهو ما يفسر لنا غزارة إنتاجه في مختلف الحقول على كثرة مشاغله، غير أنه في الحقيقة قد استمر يضيف إلى تراجم معاصريه في الكتاب ما جدَّ من حوادث وتواريخ أخرى للعقدين التاليين، لعل من أمثلتها الواضحة تراجم بعض شيوخه أو تلاميذه.

(١) البدر الطالع، ص ٦٤٩ - ٦٥٥.
(٢) البدر الطالع، ص ٦٥٣.
(٣) البدر الطالع، ص ١٦.

علي بن عبد الله الوزير[١]

أمير لواء تعز

(١٣٠٢ - ١٣٦٧ هـ/ ١٨٨٥ - ١٩٤٨ م)

كان السيد الأمير (الفَريد)[٢] علي بن عبد الله الوزير (١٣٠٢ - ١٣٦٧هـ/ ١٨٨٥ - ١٩٤٨م) أحد قادة جيوش الإمام يحيى عقب الاستقلال في ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٨ م، وقام بدور حربي وإداري مشهود في لواء تعز الذي أصبح أول أمير له من سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م ولعشرين سنة، حتى فَتَرَت علاقاته بوليِّ العهد الأمير أحمد ابن الإمام يحيى، ومن ثم مع والده، وتطور الخلاف إلى اتهامات خطيرة أدَّت إلى عَزْلِه وحل محله وليُّ العهد أميراً على اللواء عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، ولعشر سنوات تالية حتى انقلاب عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م وأحداثه الدامية.

وفيما يلي استعراض لمحات سريعة نقف عند بعضها؛ بدايةً بترجمة الأمير علي بن عبد الله الوزير، كما سبق لي أن كتبتها في الطبعة الثانية من الموسوعة اليمنية[٣]، وإلى الاستفادة من بعض الوثائق المتعلقة بطبيعة

---

(١) ملخص ورقة قدمت في مؤتمر جامعة تعز (عاصمة اليمن الثقافية) في ٢٥ - ٢٧/ ٥ / ٢٠٠٩.

(٢) لُقِّبَ بالفريد لفقده نظر إحدى عينيه في صِغَره (انظر كتاب سيرة حياته لابن أخيه المرحوم العلامة أحمد بن محمد عبد الله الوزير).

(٣) الموسوعة اليمنية، ط ٢، المجلد الرابع، ص ٣١٥٦ - ٣١٥٧.

الخلاف، وتعيين وليّ العهد خلفاً للأمير علي الوزير أميراً على لواء تعز، وعودة الوزير إلى صنعاء ليتطور موقفه فيكون الرجل الثاني - إن لم يكن الأكثر فاعلية، مع ابنه عبد الله صهر الإمام يحيى وزوج ابنته تقية[١] - في حركة انقلاب الدستور ١٩٤٨م.

* * *

الوزير (علي بن عبد الله)

(١٣٠٢ - ١٣٦٧هـ/ ١٨٨٥ - ١٩٤٨م)

عالمٌ، قائدٌ، إداريٌّ محنكٌ، ولد بهجرة (آل الوزير) بوادي السرِّ من بني حشيش، ونشأ في حجر جدّه العلاّمة محمد بن عبد الله، توفي والده بمكة وهو في الثامنة، وانتقلت الأسرة إلى الجوف عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م، فأصيب الطفل بالجدري وخسر إحدى عينيه، فعرف فيما بعد بالفريد. وبعوده إلى هجرته واصل فيها وفي الروضة ثم صنعاء تعليمه على يَدِ عُلماء العصر ومشايخه، وكان ذكياً مجتهداً، وبدأ حياته العملية كأسلافه من العلماء والفقهاء بفصل الخصومات بين المتقاضين في وادي السرِّ، حتى كان عام ١٣٢٩ هـ/ ١٩١١م حين انتدبه الإمام يحيى مسؤولاً في منطقة حَدَّة لإحكام الحصار على صنعاء قبل اتفاق دَعَّان، وبعد ذلك قام بمهمات عسكرية وإدارية أظهر فيها كفاءة وحزماً حتى عُيِّن أميراً (محافظاً) على لواء تعز عام ١٣٣٨ هـ/ ١٩٢٠ م بعد معارك كثيرة خاضها هناك.

---

(١) أصدرت حديثاً مذكرات شخصية بعنوان حزين هو "يتيمة الأحزان من حوادث الزمان"، فصلت فيها علاقة زوجها بمؤامرة مقتل الإمام يحيى، ولم تنجب منه. وقد تزوجت بعد فراره مع الزبيري ثم موته في الهند بالمرحوم السيد أحمد حسين الكبيسي، ولا زالت معمرة على قيد الحياة في المملكة العربية السعودية.

وقد تميزت السنوات الأخيرة من إمارته بتعز بفتور العلاقة مع الإمام وابنه وليِّ العهد أحمد الذي خلفه، فنقل إلى قضاء المحويت وكان ذلك على مَضَضٍ منه، وبعد أن نال من الشهرة والمكانة ما لم ينافسه فيهما أحد، كان مقره بتعز موئلاً للوافدين والساخطين، وكان كريماً سخياً طموحاً، قويت علاقته مع أقطاب حركة المعارضة، ومن بينهم زميل ابنه عبد الله ورفيق غربته أبو الأحرار الشاعر الكبير القاضي محمد محمود الزبيري، الذي كان ممن ورد إليه في تعز عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م. تعين رئيساً لوزراء حكومة ثورة الدستور عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م وبإخفاقها سيق مع آخرين إلى معتقل حجة حيث استشهد بإعدامه مع الشهيد الخادم غالب، يوم الثلاثاء ١٣ شعبان ١٣٦٧هـ/ ٢٠ حزيران - يونيو ١٩٤٨م. ولابن أخيه العلاَّمة أحمد بن محمد عبد الله الوزير كتاب حافل بعنوان (حياة الأمير ..)[١].

وبعد: لعلَّ صحيفة الإيمان الرسمية هي أهم المصادر فيما كان يصدر من قرارات تعيين، وأخبار الدولة وموقفها من القضايا والأحداث العربية والأجنبية، وبقدر ما كان متاحاً لها في ذلك الزمن.

وفي هذا الصدد نجد تعيينات أمراء الألوية (المحافظين)، وأخبار سيوف الإسلام الأمراء وغيرهم، مسجلة في الإيمان، ومن ذلك تعيين السيد عبد الله بن أحمد الوزير أميراً على لواء الحديدة، وتعيين سيف الإسلام أحمد ولي العهد رئيساً لمجلس المعروضات[٢] ومنح صلاحيات التفتيش والتنقيب في مختلف الألوية (المحافظات)، وهو تعيينٌ له مغزاه. فقد كان السيد عبد الله الوزير أميراً للواء الحديدة، والأمير علي الوزير أميراً للواء تعز، وفي العام التالي (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م) صدر (أمران

(١) ط بيروت، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م.
(٢) العدد ١١٧، ربيع الأول، ١٣٥٥ هـ.

إماميان) بتعيين السيد محمد بن أحمد الوزير (ت:١٩٦٧م) شقيق السيد عبد الله بن أحمد الوزير عاملاً بقضاء الطويلة نقلاً من ذمار، وتعيين الأخ الثالث عبد القدوس بن أحمد الوزير[١] (ت : ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م) عاملاً لقضاء ذمار ثم يريم، بعد أن كان عضواً في المجلس العالي برئاسة وليِّ العهد[٢].

وهكذا نجد مدى اعتماد الإمام يحيى على أسرة آل الوزير حتى نهاية حكمه، رغم بعض الوشايات والدعايات التي أدَّت إلى عزل الأمير علي الوزير من لواء تعز، وتوجه ولي العهد أحمد في رحلة «صدرت بها إرادة إمامية بالطواف في أقاليم القطر؛ لتفقد الشؤون الإدارية والوقوف عليها عن كثب، وإجراء ما يلزم من الإصلاحات...» إلى آخر خبر الإيمان الطويل في عددها رقم (٤) الصادر في ربيع سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

وللحديث بقية ..

(١) كان صهراً للإمام يحيى؛ فقد تزوج من ابنته السيدة أمة الرحمن، وهو والد الأخوين الصديقين الراحل عبد الكريم عبد القدوس، والسياسي والدبلوماسي القدير الأستاذ الوزير والسفير السابق محمد بن عبد القدوس الوزير.

(٢) الإيمان، العدد ١٧٦، شوال ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧ م.